الباب الثامن عشر

في ذكر أمور تتعلق بالمصيبة من البكاء والندب وشقِّ الثياب ودعوى الجاهلية ونحوها

فمنها البكاء على الميت، ومذهب أحمد وأبي حنيفة أجازاه قبل الموت وبعده، واختاره أبو إسحاق الشيرازي، وكرهه الشافعي وكثير من أصحابه بعد الموت، ورخصوا فيه قبل خروج الروح، واحتجوا بحديث جابر بن عتيك؛ أن رسول الله ﷺ جاء يعود عبدالله بن ثابت فوجده قد غاب، فصاح به فلم يجب، فاسترجع وقال: غلبنا عليك يا أبا الربيع، فصاح النسوة وبكينَ، فجعل ابن عتيك يسكتهن، فقال رسول الله ﷺ: «دعهن فإذا وجب فلا تبكينّ باكية، قالوا: وما الوجوب يا رسول الله؟ قال الموت». رواه أبو داود والنسائي.

قالوا: وفي الصحيحين من حديث ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه». وهذا إنما هو بعد الموت، وأما قبله فلا يسمى ميتاً. وعن ابن عمر: «أن رسول الله ﷺ لما قدم من أحد سمع نساء بني عبد الأشهل يبكين على هلكاهن، فقال: لكن حمزة لا بواكي له، فجاءت نساء الأنصار فبكين على حمزة عنده فاستيقظ فقال: ويحهن أتين هاهنا يبكين حتى الآن! مروهن فليرجعن ولا يبكين على هالك بعد اليوم» رواه الإمام أحمد، وهذا صريح في نسخ الإباحة المتقدمة.

والفرق بين ما قبل الموت وبعده أنه قبل الموت يرجى، فيكون البكاء عليه حذراً، فإذا مات انقطع الرجاء وأُبرم القضاء فلا ينفع البكاء.

قال المجوزون: قال جابر بن عبدالله: «أصيب أبي يوم أحد فجعلت أبكي، فجعلوا ينهونني، ورسول الله ﷺ لا ينهاني، فجعلت عمتي فاطمة تبكي، فقال النبي ﷺ: تبكين؟ - أو لا تبكين - ما زالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رفعوه» متفق عليه.

وفي الصحيحين أيضاً، عن ابن عمر قال: «اشتكى سعد بن عبادة شكوى له، فأتاه النبي ﷺ يعوده مع عبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص وعبدالله بن مسعود، فلما دخل عليه وجده في غشية، فقال: قد قضى؟ قالوا: لا يا رسول الله، فبكى رسول الله ﷺ، فلما رأى القوم بكاءه بكوا، فقال: ألا تسمعون أن الله لا يعذب بدمع العين ولا بحزن القلب ولكن يعذب بهذا وأشار إلى لسانه، أو يرحم».

وفي الصحيحين أيضاً من حديث أسامة بن زيد: «أن رسول الله ﷺ انطلق إلى إحدى بناته ولها صبي في الموت فرُفع إليه الصبي ونفسه تقعقع كأنها في شَنَّةٍ[1]، ففاضت عيناه، فقال سعد: ما هذا يا رسول الله؟ قال: هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء».

وفي مسند الإمام أحمد من حديث ابن عباس قال: ماتت رقية ابنة رسول الله ﷺ، فبكت النساء فجعل عمر يضربهن بسوطه، فقال النبي ﷺ: «دعهن يا عمر يبكين، وإياكن ونعيق الشيطان، ثم قال: إنه مهما كان من العين ومن القلب فمن الله ومن الرحمة، وما كان من اليد ومن اللسان فمن الشيطان»، وفي المسند أيضاً، عن عائشة؛ أن سعد بن معاذ لما مات حضره رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر، قالت: فوالذي نفسي بيده إني لأعرف بكاء أبي بكر من بكاء عمر وأنا في حجرتي. وفي المسند أيضاً، عن أبي هريرة قال: مُرَّ على النبي ﷺ بجنازة يُبكى عليها وأنا معه، ومعه عمر بن الخطاب، فانتهر عمر اللاتي يبكين عليها، فقال النبي ﷺ: «دعهن يا ابن الخطاب: فإن النفس مصابة، وإن العين دامعة والعهد قريب».

وفي جامع الترمذي عن جابر بن عبدالله قال: أخذ النبي ﷺ بيد عبد الرحمن بن عوف، فانطلق إلى ابنه إبراهيم فوجده يجود بنفسه، فأخذه

---

(١) في شَنَّة: في قِرْبة.

النبي ﷺ فوضعه في حجره فبكى، فقال له: أتبكي، أو لم تكن نهيت عن البكاء؟ قال: لا ولكن نهيت عن صوتين أحمقين فاجرين: صوت عند مصيبة خمش الوجه وشق الجيوب، ورنة شيطان. قال الترمذي: هذا حديث حسن. وقد صح عنه ﷺ أنه زار قبر أمه فبكى وأبكى من حوله، وقد صح عنه ﷺ أنه قبّل عثمان بن مظعون حتى سالت دموعه على وجهه، وصح عنه ﷺ أنه نعى جعفر وأصحابه وعيناه تذرفان. وصح عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قبّل النبي ﷺ وهو ميِّت وبكى.

فهذه اثنتا عشرة حجة تدل على عدم كراهة البكاء، فتعيَّن حمل أحاديث النهي على البكاء الذي معه ندب ونياحة، ولهذا جاء في بعض ألفاظه حديث عمر: «الميت يُعذب ببعض بكاء أهله عليه». وفي بعضها: «يعذب بما ينح عليه». وقال البخاري في صحيحه قال عمر: دعهن يبكين على أبي سليمان ـ يعني خالد بن الوليد ـ ما لم يكن نقع أو لقلقة. والنقع حثي التراب، واللقلقة: الصوت.

وأما دعوى النسخ في حديث حمزة فلا يصح، إذ معناه لا يبكين على هالك بعد اليوم من قتلى أحد.

ويدل على ذلك أن نصوص الإباحة أكثرها متأخرة عن غزوة أحد، منها حديث أبي هريرة إذ إسلامه وصحبته كانا في السنة السابعة، ومنها البكاء على جعفر وأصحابه وكان استشهادهم في السنة الثامنة، ومنها البكاء على زينب وكان موتها في السنة الثامنة أيضاً، ومنها البكاء على سعد بن معاذ وكان موته في الخامسة، ومنها البكاء عند قبر أمه ﷺ وكان عام الفتح في الثامنة.

وقولهم: إنما جاز قبل الموت حذراً بخلاف ما بعد الموت. جوابه أن الباكي قبل الموت يبكي حزناً، وحزنه بعد الموت أشد، فهو أولى برخصة البكاء من الحالة التي يرجى فيها، وقد أشار النبي إلى ذلك بقوله: «تدمع

العين ويحزن القلب، ولا نقول ما يسخط الرب، وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون».

فصل: وأما الندب والنياحة فنصَّ أحمد على تحريمها، قال في رواية حنبل: النياحة معصية. وقال أصحاب الشافعي وغيرهم: النوح حرام. وقال ابن عبد البر: أجمع العلماء على أن النياحة لا تجوز للرجال ولا للنساء. وقال بعض المتأخرين من أصحاب أحمد: يكره تنزيهاً. وهذا لفظ أبي الخطاب في الهداية، قال: ويكره الندب والنياحة وخمش الوجوه وشق الجيوب والتحفي، والصواب القول بالتحريم؛ لما في الصحيحين من حديث عبدالله بن مسعود: أن النبي ﷺ قال: «ليس منا من ضرب الخدودَ وشقَّ الجيوبَ ودعا بدعوى الجاهلية». وفي الصحيحين أيضاً، عن أبي بردة قال: وَجِعَ أبو موسى وجعاً فغشي عليه، ورأسه في حِجر امرأة من أهله، فصاحت امرأة من أهله، فلم يستطع أن يرد عليها شيئاً، فلما أفاق قال: أنا بريء مما برىء منه رسول الله ﷺ، فإن رسول الله برىء من الصالقة والحالقة والشاقّة[1] وفي الصحيحين أيضاً عن المغيرة بن شعبة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن من يُنح عليه يعذب بما نيح عليه». وفي الصحيحين أيضاً عن أم عطية قالت: أخذ علينا رسول الله ﷺ في البيعة ألا ننوح، فما وفَّتْ منا امرأة إلا خمسُ نسوة.

وفي صحيح البخاري عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال: الميت يعذب في قبره بما ينح عليه. وفي صحيح مسلم عن أبي مالك الأشعري أن النبي ﷺ قال: أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن «الفخر بالأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة». وقال: النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران، ودرع من جرب.

---

(١) الصالقة: التي ترفع صوتها عند المصيبة، والشاقة: التي تشق ثوبها عند المصيبة.

وفي سنن أبي داود عن أسيد بن أبي أسيد عن امرأة من المبايعات قالت: كان فيما أخذ علينا رسول الله ﷺ في المعروف الذي أخذ علينا أن لا نعصيه فيه وأن لا نخمش وجهاً ولا ندعو ويلاً، ولا نشق جيباً ولا ننفش شعراً، وفي المسند عن أنس قال: «أخذ النبي ﷺ على النساء حين بايعهن أن لا ينحن، فقلن: يا رسول الله إن نساءنا أسعدننا في الجاهلية أفنسعدهن في الإسلام؟ فقال: لا إسعاد في الإسلام». وقد تقدم قوله: «ما كان من اليد واللسان فمن الشيطان» وقوله: نهيت عن صوتين أحمقين فاجرين، صوت عند مصيبة خمش وجوه وشق جيوب، ورنة شيطان.

وفي مسند الإمام أحمد من حديث أبي موسى أن رسول الله ﷺ قال: «الميت يعذب ببكاء الحي، إذا قالت النائحة: واعضداه! وانـاصراه! واكاسياه! جبذ الميت وقيل له: أنت عضدها؟ أنت ناصرها؟ أنت كاسيها؟» وفي صحيح البخاري عن النعمان بن بشير قال: أغمي على عبد الله بن رواحة، فجعلت أخته عمرة تبكي وتقول: واجبلاه واكذا واكذا، تعدد عليه، فقال حين أفاق: ما قلت لي شيئاً إلا قيل لي أنت كذا؟ فلما مات لم تبك عليه.

وكيف لا تكون هذه الخصال محرمة وهي مشتملة على التسخط على الرب وفعل ما يناقض الصبر والإضرار بالنفس، من لطم الوجه، وحلق الشعر ونتفه، والدعاء عليها بالويل والثبور، والتظلم من الله سبحانه، وإتلاف المال بشق الثياب وتمزيقها، وذكر الميت بما ليس فيه، ولا ريب أن التحريم الشديد يثبت ببعض هذا.

وقال المبيحون لمجرد الندب والنياحة مع كراهتهم له: قد روى حرب عن واثلة بن الأسقع وأبي وائل أنهما كانا يسمعان النوح ويسكتان.

قالوا وفي الصحيحين عن أم عطية قالت: لما نزلت هذه الآية: ﴿يا أيُّها النبي إذا جاءَك المؤمناتُ يُبايعْنَكَ على أنْ لا يُشْرِكْنَ بالله شيئاً ـ إلى قوله ـ ولا يَعْصِينَكَ في معروف﴾ [الممتحنة: ١٢] كان منه النياحة، فقلت:

يا رسول الله! إلا آل فلان فإنهم كانوا أسعدوني في الجاهلية فلا بد لي من أن أسعدهم؟ فقال: «إلا آل فلان». وفي رواية لهما أنها قالت: بايعنا رسول الله ﷺ، فقرأ علينا ﴿أن لا يُشْرِكْنَ بالله شيئاً﴾ ونهانا عن النياحة، فقبضت منا امرأة يدها فقالت: فلانة أسعدتني فأنا أريد أن أجزيها، قالت: فما قال لها شيئاً، فذهبت فانطلقت ثم رجعت فبايعها، قالوا: وهذا الإذن لبعضهن في فعله يدل على أن النهي عنه تنزيه لا تحريم، ويتعين حمله على المجرد من تلك المفاسد جمعاً بين الأدلة.

قال المحرمون: لا تعارض سنة رسول الله ﷺ بأحد من الناس كائناً من كان، ولا نضرب سنته بعضها ببعض، وما ذكرنا من النصوص صحيحة صريحة لا تحتمل تأويلاً، وقد انعقد عليها الإجماع، وأما المرأة التي قال لها: «إلا آل فلان»، والمرأة التي سكت عنها فذلك خاص بهما لوجهين:

أحدهما: أنه قال لغيرهما لما سألته ذلك: «لا إسعاد في الإسلام».

والثاني: أنه أطلق لهما ذلك وهما حديثا عهد بالإسلام، وهما لم يميزا بين الجائز من ذلك وبين المحرم، وتأخير البيان عن وقت الحاجة لا يجوز، فعلم أن الحكم لا يعدوهما إلى غيرهما.

وأما الكلمة اليسيرة إذا كانت صدقاً لا على وجه النوح والتسخط فلا تحرم ولا تنافي الصبر الواجب، نص عليه أحمد في مسنده من حديث أنس أن أبا بكر رضي الله عنه دخل على النبي ﷺ بعد وفاته، فوضع فمه بين عينيه ووضع يده على صدغيه وقال: وانبيّاه واخليلاه واصفيّاه.

وفي صحيح البخاري عن أنس أيضاً قال: لما ثقل على النبي ﷺ جعل يتغشاه الكرب، فقالت فاطمة: واكرب أبتاه، فقال: ليس على أبيك كرب بعد اليوم، فلما مات قالت: يا أبتاه أجاب رباً دعاه، يا أبتاه جنة الفردوس مأواه، يا أبتاه إلى جبريل أنعاه. فلما دفن قالت فاطمة: يا أنس! أطابت أنفسكم أن تحثوا على رسول الله ﷺ التراب؟ وقال النبي ﷺ «وإنا

بك يا إبراهيم لمحزونون». وهذا ونحوه من القول الذي ليس فيه تظلم للمقدور، ولا تسخط على الرب، ولا إسخاط له، فهو كمجرد البكاء.

فصل: وأما قول النبي ﷺ: «إن الميت ليعذب بالنياحة عليه»، فقد ثبت عنه من رواية عمر بن الخطاب وابنه عبدالله والمغيرة بن شعبة، وروي نحوه عن عمران بن حصين وأبي موسى رضي الله عنهم، فاختلفت طرق الناس في ذلك: فقالت فرقة: يتصرف الله في خلقه بما يشاء، وأفعال الله لا تعلل، ولا فرق بين التعذيب بالنوح عليه والتعذيب بما هو منسوب إليه، لأن الله خالق الجميع، والله تعالى يؤلم الأطفال والبهائم والمجانين بغير عمل.

وقالت فرقة: هذه الأحاديث لا تصح عن رسول الله ﷺ، وقد أنكرتها عائشة أم المؤمنين، واحتجت بقوله تعالى: ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ [الإسراء: ١٥] ولما بلغها رواية عمر وابنه قالت: إنكم لتحدثون عن غير كاذبين ولا متهمين، ولكن السمع يخطىء. وقالت: إنما مر النبي ﷺ على قبر يهودي فقال: «إن صاحب هذا القبر يعذب وأهله يبكون عليه».

وفي رواية متفق عليها عنها: إنما قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليزيد الكافر عذاباً ببكاء أهله عليه». وقالت: حسبكم القرآن ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾.

وقالت فرقة أخرى منهم المزني وغيره: إن ذلك محمول على من أوصى به إذا كانت عادتهم ذلك، وهو كثير في أشعارهم، كقول طرفة:

إذا مت فانعيني بما أنا أهلُه ... وشقِّي عليَّ الجيب يا ابنة معبد

وقول لبيد:

فقوما فقولا بالذي قد علمتما ... ولا تخمشا وجهاً ولا تحلقا شعر

وقولا هو المرءُ الذي لا صديقه ... أضاع ولا خان الأمين ولا غدر

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما ... ومن يبكِ حولاً كاملاً فقد اعتذر

وقالت طائفة: هو محمول على من سنته وسنة قومه ذلك إذا لم ينههم عنه، لأن ترك نهيه دليل على رضاه به، وهذا قول ابن المبارك وغيره. قال أبو البركات بن تيمية: وهو أصح الأقوال كلها؛ لأنه متى غلب على ظنه فعلهم ولم يوصهم بتركه فقد رضي به وصار كمن ترك النهي عن المنكر مع القدرة عليه، فأما إذا أوصاهم بتركه فخالفوه فالله أكرم من أن يعذبه بذلك، وقد حصل بذلك العمل بالآية مع إجراء الخبر على عمومه في كثير من الموارد، وإنكار عائشة لذلك بعد رواية الثقات لا يعود عليه، فإنهم قد يحضرون ما لا تحضره ويشهدون ما تغيب عنه، واحتمال السهو والغلط بعيد خصوصاً في حق خمسة من أكابر الصحابة.

وقوله في اليهود لا يمنع أن يكون قد قال ما رواه عنه هؤلاء الخمسة في أوقات أخر، ثم هي محجوجة بروايتها عنه أنه قال: «إن الله يزيد الكافر عذاباً ببكاء أهله عليه» فإذا لم يمنع زيادة الكافر عذاباً بفعل غيره مع كونه مخالفاً لظاهر الآية لم يمنع ذلك في حق المسلم، إن الله سبحانه كما لا يظلم عبده المسلم لا يظلم الكافر، والله أعلم.

فصل: ولا تحتاج هذه الأحاديث إلى شيء من هذه التكلفات، وليس فيها بحمد الله إشكال، ولا مخالفة لظاهر القرآن، ولا لقاعدة من قواعد الشرع، ولا تتضمن عقوبة الإنسان بذنب غيره، فإن النبي ﷺ لم يقل إن الميت يعاقب ببكاء أهله عليه ونوحهم، وإنما قال يعذب بذلك، ولا ريب أن ذلك يؤلمه ويعذبه، والعذاب هو الألم الذي يحصل له، وهو أعم من العقاب، والأعم لا يستلزم الأخص، وقد قال ﷺ: «السفر قطعة من العذاب» وهذا العذاب يحصل للمؤمن والكافر، حتى أن الميت ليتألم بمن يعاقب في قبره في جواره، ويتأذى بذلك كما يتأذى الإنسان في الدنيا بما يشاهده من عقوبة جاره، فإذا بكى أهل الميت عليه البكاء المحرم، وهو البكاء الذي كان أهل الجاهلية يفعلونه، والبكاء على الميت عندهم اسم لذلك، وهو معروف في نظمهم ونثرهم؛ تألم الميت بذلك في قبره، فهذا

التألم هو عذابه بالبكاء عليه، وهذه طريقة شيخنا في هذه الأحاديث، وبالله التوفيق.

الباب التاسع عشر
في أن الصبر نصف الإيمان

والإيمان نصفان: نصف صبر ونصف شكر، قال غير واحد من السلف: الصبر نصف الإيمان. وقال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: «الإيمان نصفان: نصف صبر ونصف شكر» ولهذا جمع الله سبحانه بين الصبر والشكر في قوله: ﴿إنَّ في ذلك لآياتٍ لكلِّ صَبَّارٍ شَكُور﴾ في سورة إبراهيم، وفي سورة حم عسق[1]، وفي سورة سبأ، وفي سورة لقمان، وقد ذكر لهذا التنصيف اعتبارات:

أحدها: إن الإيمان اسم لمجموع القول والعمل والنية، وهي ترجع إلى شطرين، فعل وترك، فالفعل هو العمل بطاعة الله وهو حقيقة الشكر، والترك هو الصبر عن المعصية، والدين كله في هذين الشيئين، فعل المأمور وترك المحظور.

الاعتبار الثاني: إن الإيمان مبني على ركنين: يقين وصبر، وهما الركنان المذكوران في قوله تعالى: ﴿وجعلناهم أئمةً يَهْدونَ بأمرنا لَمَّا صَبَرُوا وكانوا بآياتِنا يُوقنون﴾ [السجدة: ٢٤] فباليقين يعلم حقيقة الأمر والنهي والثواب والعقاب، وبالصبر ينفذ ما أمر به ويكف نفسه عما نهي عنه، ولا يحصل له التصديق بالأمر والنهي أنه من عند الله وبالثواب والعقاب إلا باليقين، ولا يمكنه الدوام على فعل المأمور وكف النفس عن المحظور إلا بالصبر، فصار الصبر نصف الإيمان، والنصف الثاني الشكر بفعل ما أمر به وبترك ما نهي عنه.

---

(١) هي سورة الشورى.

الاعتبار الثالث: إن الإيمان قول وعمل، والقول قول القلب واللسان والعمل عمل القلب والجوارح، وبيان ذلك أن من عرف الله بقلبه ولم يقر بلسانه لم يكن مؤمناً، كما قال عن قوم فرعون: ﴿وجَحَدُوا بها واسْتَيقنَتْها أنفسُهم﴾ [النمل: ١٤]، وكما قال عن قوم عاد وقوم صالح: ﴿وعاداً وثمودَ وقد تبيَّنَ لكم من مساكِنهم وزيَّنَ لهم الشيطانُ أعمالَهم فصدَّهُم عن السبيل وكانُوا مُستبصرين﴾ [العنكبوت: ٣٨]، وقال موسى لفرعون: ﴿لقد علمتَ ما أنزلَ هؤلاء إلا ربُّ السمواتِ والأرضِ بَصَائِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢]. فحصل قول القلب لهؤلاء وهو المعرفة والعلم، ولم يكونوا بذلك مؤمنين. وكذلك من قال بلسانه ما ليس في قلبه لم يكن بذلك مؤمناً بل كان من المنافقين، وكذلك من عرف بقلبه وأقر بلسانه لم يكن بمجرد ذلك مؤمناً حتى يأتي بعمل القلب من الحب والبغض والموالاة والمعاداة، فيحب الله ورسوله ويوالي أولياء الله ويعادي أعداءه، ويستسلم بقلبه لله وحده، وينقاد لمتابعة رسوله وطاعته والتزام شريعته ظاهراً وباطناً، وإذا فعل ذلك لم يكف في كمال إيمانه حتى يفعل ما أمر به.

فهذه الأركان الأربعة هي أركان الإيمان التي قام عليها بناؤه، وهي ترجع إلى علم وعمل، ويدخل في العمل كفُّ النفس الذي هو متعلق النهي، وكلاهما لا يحصل إلا بالصبر؛ فصار الإيمان نصفين: أحدهما الصبر والثاني متولد عنه من العلم والعمل.

الاعتبار الرابع: إن النفس لها قوتان: قوة الإقدام وقوة الإحجام، وهي دائماً تتردد بين أحكام هاتين القوتين فتقدم على ما تحبه وتحجم عما تكرهه. والدين كله إقدام وإحجام، إقدام على طاعة وإحجام عن معاصي الله، وكل منهما لا يمكن حصوله إلا بالصبر.

الاعتبار الخامس: إن الدين كله رغبة ورهبة، فالمؤمن هو الراغب الراهب قال تعالى: ﴿إنَّهم كانُوا يُسارعونَ في الخيراتِ ويَدْعُوننا رَغَبَاً ورَهَباً﴾ [الأنبياء: ٩٠]، وفي الدعاء عند النوم الذي رواه البخاري في

صحيحه «اللهم إني أسلمت نفسي إليك، ووجهت وجهي إليك، وفوّضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، رغبة ورهبة إليك» فلا تجد المؤمن أبداً إلا راغباً وراهباً، والرغبة والرهبة لا تقومان إلا على ساق الصبر، فرهبته تحمله على الصبر ورغبته تقوده إلى الشكر.

الاعتبار السادس: إن جميع ما يباشره العبد في هذه الدار لا يخرج عما ينفعه في الدنيا والآخرة، أو يضره في الدنيا والآخرة، أو ينفعه في أحد الدارين ويضره في الأخرى، وأشرف الأقسام أن يفعل ما ينفعه في الآخرة ويترك ما يضره فيها وهو حقيقة الإيمان، ففعل ما ينفعه هو الشكر، وترك ما يضره هو الصبر.

الاعتبار السابع: إن العبد لا ينفك عن أمر يفعله، ونهي يتركه، وقدر يجري عليه، وفرضه في الثلاثة الصبر والشكر، ففعل المأمور هو الشكر، وترك المحظور والصبر على المقدور هو الصبر.

الاعتبار الثامن: إن العبد فيه داعيان: داع يدعوه إلى الدنيا وشهواتها ولذاتها، وداعٍ يدعوه إلى الله والدار الآخرة وما أعد فيها لأوليائه من النعيم المقيم، فعصيان داعي الشهوة والهوى هو الصبر، وإجابة داعي الله والدار الآخرة هو الشكر.

الاعتبار التاسع: إن الدين مداره على أصلين: العزم والثبات، وهما الأصلان المذكوران في الحديث الذي رواه أحمد والنسائي عن النبي ﷺ: «اللهم إني أسألك الثبات في الأمر، والعزيمة على الرشد». وأصل الشكر صحة العزيمة، وأصل الصبر قوة الثبات، فمتى أُيِّدَ العبد بعزيمة وثبات فقد أُيِّدَ بالمعونة والتوفيق.

الاعتبار العاشر: إن الدين مبني على أصلين: الحق والصبر. وهما المذكوران في قوله تعالى ﴿وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾، ولما كان المطلوب من العبد هو العمل بالحق في نفسه وتنفيذه في الناس، وكان هذا

هو حقيقة الشكر لم يمكنه ذلك إلا بالصبر عليه، فكان الصبر نصف الإيمان، والله سبحانه وتعالى أعلم.

الباب العشرون

في بيان تنازع الناس في الأفضل من الصبر والشكر

حكى أبو الفرج بن الجوزي في ذلك ثلاثة أقوال: أحدها: إن الصبر أفضل. والثاني: إن الشكر أفضل. والثالث: إنهما سواء؛ كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لو كان الصبر والشكر بعيرين ما باليت أيها ركبت».

ونحن نذكر ما احتجت به كل فرقة ومالها وعليها في احتجاجها بعون الله وتوفيقه.

فصل: قال الصابرون: قد أثنى الله سبحانه على الصبر وأهله، ومدحه وأمر به، وعلَّق عليه خير الدنيا والآخرة، وقد ذكره الله في كتابه في نحو تسعين موضعاً، وقد تقدم من النصوص والأحاديث فيه وفي فضله ما يدل على أنه أفضل من الشكر، ويكفي في فضله قوله ﷺ: «الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر» فذكر ذلك في معرض تفضيل الصبر ورفع درجته على الشكر، فإنه ألحق الشاكر بالصابر وشبهه به، ورتبة المشبه به أعلى من رتبة المشبه، وهذا كقوله: «مدمنُ الخمر كعابد وثن» ونظائر ذلك.

قالوا: وإذا وازنّا بين النصوص الواردة في الصبر والواردة في الشكر وجدنا نصوص الصبر أضعافها، ولهذا لما كانت الصلاة والجهاد أفضل الأعمال كانت الأحاديث فيهما في سائر الأبواب، فلا تجد الأحاديث النبوية في باب أكثر منها في باب الصلاة والجهاد، قالوا وأيضاً فالصبر يدخل في كل باب، بل في كل مسألة من مسائل الدين، ولهذا كان من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد.

قالوا: وأيضاً فالله سبحانه وتعالى علَّقَ على الشكر الزيادة فقال: ﴿وإذْ تأذَّنَ ربُّكم لئنْ شكرتُم لأزيدنَّكُم﴾ [إبراهيم: ٧]، وعلق على الصبر الجزاء بغير حساب، وأيضاً فإنه سبحانه أطلق جزاء الشاكرين فقال: ﴿وسيجزي اللّهُ الشاكرينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤] وقيد جزاء الصابرين بالإحسان فقال: ﴿ولنجزينَّ الذين صَبَرُوا أجَرهم بأحسنَ ما كانُوا يعَملون﴾ [النحل: ٩٦].

قالوا: وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: يقول الله تعالى: «كلُّ عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به». وفي لفظ: «كل عمل ابن آدم يضاعف له الحسنة بعشر أمثالها، قال الله تعالى: إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به». وما ذاك إلا لأنه صبر النفس ومنعها من شهواتها، كما في الحديث نفسه: يدع شهوته وطعامه وشرابه من أجلي، ولهذا قال النبي ﷺ لمن سأله عن أفضل الأعمال: «عليك بالصوم فإنه لا عدل له». ولما كان الصبر حبس النفس عن إجابة داعي الهوى، وكان هذا حقيقة الصوم فإنه حبس النفس عن إجابة داعي شهوة الطعام والشراب والجماع فسر الصبر في قوله تعالى: ﴿واستعينوا بالصبر والصَّلاةِ﴾ [البقرة: ٤٥] أنه الصوم، وسمي رمضان شهر الصبر، وقال بعض السلف: الصوم نصف الصبر، وذلك أن الصبر حبس النفس عن إجابة داعي الشهوة والغضب، فإن النفس تشتهي الشيء لحصول اللذة بإدراكه، وتغضب لنفرتها من المؤلم لها، والصوم صبر عن مقتضى الشهوة فقط، وهي شهوة البطن والفرج دون مقتضى الغضب، ولكن من تمام الصوم وكماله صبر النفس عن إجابة داعي الأمرين، وقد أشار إلى ذلك النبي ﷺ في الحديث الصحيح، وهو قوله: «إذا كان يوم صوم أحدكم فلا يجهل ولا يصخب، فإنْ أحداً سابّه أو شاتمه فليقلْ: إني صائم». فأرشد ﷺ إلى تعديل قوى الشهوة والغضب، وأن الصائم ينبغي له أن يحتمي من إفسادهما لصومه، فهذه تفسد صومه، وهذه تحبط أجره، كما قال في الحديث الآخر: «من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه».

قالوا: ويكفي في فضل الصبر على الشكر قوله تعالى: ﴿إنِّي جزيتهم اليومَ بما صَبَرُوا أنَّهم هم الفائزون﴾ [المؤمنون: ١١١]، فجعل فوزهم جزاء صبرهم، وقال تعالى: ﴿والله مع الصابرين﴾ [البقرة: ٢٤٩]، لا شيء يعدل معيته لعبده، كما قال بعض العارفين: ذهب الصابرون بخير الدنيا والآخرة لأنهم نالوا معية الله، وقال تعالى: ﴿واصبرْ لحكم ربِّكَ فإنَّكَ بأعيُننا﴾ [الطور: ٤٨]، وهذا يتضمن الحراسة والكلاءة والحفظ للصبر لحكمه.

وقد وعد الصابرين بثلاثة أشياء كل واحد خير من الدنيا وما عليها، وهي صلواته تعالى عليهم ورحمته لهم، وتخصيصهم بالهداية في قوله تعالى: ﴿أولئك عليهم صلواتٌ من ربِّهم ورحمةٌ وأولئكَ هم المُهتدون﴾ [البقرة: ١٥٧]، وهذا مفهم لحصر الهدى فيهم، وأخبر أن الصبر من عزم الأمور في آيتين من كتابه، وأمر رسوله أن يتشبه بصبر أولي العزم من الرسل وقد تقدم ذكر ذلك.

قالوا: وقد دلَّ الدليل على أن الزهد في الدنيا والتقلل منها مهما أمكن أفضل من الاستكثار منها، والزهدُ فيها حالُ الصابر، والاستكثار منها حال الشاكر.

قالوا: وقد سُئل المسيح صلوات الله وسلامه عليه عن رجلين مرا بكنز، فتخطاه أحدهما ولم يلتفت إليه، وأخذه الآخر وأنفقه في طاعة الله تعالى، أيهما أفضل؟ فقال: الذي لم يلتفت إليه وأعرض عنه أفضل عند الله.

قالوا: ويدل على صحة هذا أن النبي ﷺ عرضت عليه مفاتيح كنوز الأرض فلم يأخذها، وقال: بل أجوع يوماً وأشبع يوماً، ولو أخذها لأنفقها في مرضاة الله وطاعته، فآثر مقام الصبر عنها والزهد فيها.

قالوا: وقد علم أن الكمال الإنساني في ثلاثة أمور: علوم يعرفها،

وأعمال يعمل بها، وأحوال ترتب له على علومه وأعماله، وأفضل العلم والعمل والحال: العلم بالله وأسمائه وصفـاته وأفعاله، والعمل بمرضاته وانجذاب القلب إليه بالحب والخوف والرجاء، فهذا أشرف ما في الدنيا، وجزاؤه أشرف ما في الآخرة، وأجلُّ المقاصد معرفـة الله ومحبته والأنس بقربه، والشوق إلى لقائه والتنعم بذكره، وهذا أجلُّ سعادة الدنيا والآخرة، وهذا هو الغاية التي تطلب لذاتها، وإنما يشعر العبد تمام الشعور بأن ذلك عين السعادة إذا انكشف له الغطاء وفارق الدنيا ودخل الآخرة، وإلا فهو في الـدنيا، وإن شعـر بذلـك بعض الشعور فليس شعـوره بـه كـامـلاً للمعارضات التي عليه، والمحن التي امتحن بها، وإلا فليست السعادة في الحقيقة سوى ذلك، وكل العلوم والمعارف تبع لهذه المعرفة، مرادة لأجلها، وتفاوت العلوم في فضلها بحسب إفضائها إلى هذه المعرفة وبُعْدِها، فكل علم كان أقرب إفضاءً إلى العلم بالله وأسمائه وصفاته فهو أعلى مما دونه، وكذلك حال القلب فكل حال كان أقرب إلى المقصود الذي خلق له فهو أشرف مما دونه، وكذلك الأعمال، فكل عمل كان أقرب إلى تحصيل هذا المقصود كان أفضل من غيره ولهذا كانت الصلاة والجهاد من أفضل الأعمال وأفضلها لقـرب إفضائها إلى المقصود. وهكذا يجب أن يكون، فإن كل ما كان الشيء أقرب إلى الغاية كان أفضل من البعيد عنها، فالعمل المعد للقلب المهيء له لمعرفة الله وأسمائه وصفاته ومحبته وخوفه ورجائه أفضل مما ليس كذلك، وإذا اشتركت عدة أعمال في هذا الإفضاء فأفضلها أقربها إلى هذا المفضي، ولهذا اشتركت الطاعات في هذا الإفضاء فكانت مطلوبة لله، واشتركت المعاصي في حجب القلب وقطعه عن هذه الغاية فكانت منهياً عنها، وتأثير الطاعات والمعاصي بحسب درجاتها.

وهاهنا أمر ينبغي التفطن له، وهو أنه قد يكون العمل المعين أفضل منه في حق غيره، فالغني الذي بلغ له مال كثير ونفسه لا تسمح ببذل شيء منه، فصدقته وإيثاره أفضل له من قيام الليل وصيام النهار نافلة، والشجاع الشديد الذي يهاب العدو سطوته وقوفه في الصف ساعة وجهاده أعداء الله

أفضل من الحج والصوم والصدقة والتطوع، والعالم الذي قد عرف السنة والحلال والحرام وطرق الخير والشر مخالطته للناس وتعليمهم ونصحهم في دينهم أفضل من اعتزاله وتفريغ وقته للصلاة وقراءة القرآن والتسبيح، وولي الأمر الذي قد نصبه الله للحكم بين عباده، جلوسه ساعة للنظر في المظالم وإنصاف المظلوم من الظالم وإقامة الحدود ونصر المُحِقِّ وقمع المُبْطِلِ أفضل من عبادة سنين من غيره، ومن غلبت عليه شهوة النساء فصومه له أنفع وأفضل من ذكر غيره وصدقته، وتأمّل تولية النبي ﷺ لعمرو بن العاص وخالد بن الوليد وغيرهما من أمرائه وعماله وترك تولية أبي ذر، بل قال له: «إني أراك ضعيفاً وإني أحب لك ما أحب لنفسي: لا تُؤمّرن على اثنين ولا تُولينّ مال يتيم». وأمَرَهُ وغيره بالصيام وقال: «عليك بالصوم فإنه لا عدل له». وأمر آخر بأن لا يغضب، وأمر ثالثاً بأن لا يزال لسانه رطباً من ذكر الله، ومتى أراد الله بالعبد كمالاً وفّقه لاستفراغ وسعه فيما هو مستعد له، قابل له قد هيّىء له، فإذا استفرغ وسعه بَزَّ على غيره وفاق الناس فيه، كما قيل:

ما زالَ يسبقُ حتى قال حاسدُه هذا طريقٌ إلى العليـاء مختصرُ

وهذا كالمريض الذي يشكو وجع البطن مثلاً إذا استعمل دواء ذلك الداء انتفع به، وإذا استعمل دواء وجع الرأس لم يصادف داءه، فالشح المُطاع مثلاً من المهلكات ولا يزيله صيام مائة عام ولا قيام ليلها، وكذلك داء اتباع الهوى والإعجاب بالنفس لا يلائمه كثرة قراءة القرآن واستفراغ الوسع في العلم والذكر والزهد وإنما يزيله إخراجه من القلب بضده، ولو قيل أيهما أفضل: الخبز أو الماء؟ لكان الجواب: إن هذا في موضعه أفضل، وهذا في موضعه أفضل.

وإذا عرفت هذه القاعدة فالشكر ببذل المال عمل صالح يحصل به للقلب حال، وهو زوال البخل والشح بسبب خروج الدنيا منه، فتهيّأ لمعرفة الله ومحبته، فهو دواء للداء الذي في القلب يمنعه من المقصود، وأما

الفقير الزاهد فقد استراح من هذا الداء والدواء، وتوفرت قوته على استفراغ الوسع في حصول المقصود.

ثم أوردوا على أنفسهم سؤالاً فقالوا: فإن قيل فقد حث الشرع على الأعمال وانفصلوا عنه، بأن قالوا: الطبيب إذا أثنى على الدواء لم يدل على أن الدواء يراد لعينه ولا أنه أفضل من الشفاء الحاصل به، ولكن الأعمال علاج لمرض القلوب، ومرض القلوب مما لا يُشعر به غالباً، فوقع الحث على العمل المقصود وهو شفاء القلب، فالفقير الآخذ لصدقتك يستخرج منك داء البخل كالحجَّام يستخرج منك الدم المهلك.

قالوا: وإذا عُرف هذا عرف أن حال الصابر حال المحافظ على الصحة والقوة، وحال الشاكر حال المتداوي بأنواع الأدوية لإزالة مواد السقم.

فصل: قال الشاكرون: لقد تعديتم طوركم، وفضلتم مقاماً غيرُه أفضل منه، وقدمتم الوسيلة على الغاية، والمطلوب لغيره على المطلوب لنفسه، والعمل الكامل على الأكمل، والفاضل على الأفضل، ولم تعرفوا للشكر حقه، ولا وفيتموه مرتبته، وقد قرن تعالى ذكره الذي هو المراد من الخلق بذكره وكلاهما هو المراد بالخلق والأمر، والصبر خادم لهما ووسيلة إليهما وعوناً عليهما، قال تعالى: ﴿اذكروني أذكرْكُم واشْكُروا لي ولا تَكْفُرون﴾ [البقرة: ١٥٢].

وقرن سبحانه الشكر بالإيمان وأخبر أنه لا غرض له في عذاب خلقه إن شكروا وآمنوا به فقال: ﴿ما يفعلُ اللّهُ بعذابكِم إنْ شكرْتُم وآمنتُم﴾ [النساء: ١٤٧]، أي إن وفيتم ما خلقتم له وهو الشكر والإيمان فما أصنع بعذابكم؟.

هذا وأخبر سبحانه أن أهل الشكر هم المخصوصون بمنته عليهم من بين عباده فقال: ﴿وكذلك فتنا بعضَهم ببعضٍ ليقولوا أهؤلاءِ مَنَّ اللّهُ

عليهم من بيننا؟ أليس اللّهُ بأعلمَ بالشاكرين﴾ [الأنعام: ٥٣]. وقسم الناس إلى شكور وكفور، فأبغض الأشياء إليه الكفر وأهله، وأحب الأشياء إليه الشكر وأهله، قال تعالى في الإنسان: ﴿إنَّا هديناهُ السبيلَ إمَّا شاكراً وإمَّا كفوراً﴾ [الإنسان: ٣].

وقال نبيه سليمان: ﴿هذا من فضل ربِّي ليبلوني أأشكرُ أم أكفرُ ومَنْ شكرَ فإنما يشكرُ لنفسه ومَنْ كفرَ فإنَّ ربِّي غنيٌّ كريم﴾ [النمل: ٤٠]. وقال تعالى: ﴿وإذ تأذَّن ربُّكم لئن شَكرتُم لأزيدنَّكم ولئن كفرتُم إنَّ عذابي لشديد﴾ [إبراهيم: ٧]. وقال تعالى: ﴿إنْ تكفروا فإنَّ اللّهَ غنيٌّ عنكم ولا يرضى لعباده الكفرَ وإنْ تشكروا يرضَهُ لكم﴾ [الزمر: ٧]. وهذا كثير في القرآن، يقابل سبحانه بين الشكر والكفر فهو ضده، قال تعالى: ﴿وما محمدٌ إلا رسولٌ قد خلتْ من قبله الرسل أفإن ماتَ أو قُتل انقلبتم على أعقابكم، ومن ينقلبْ على عقبيه فلن يضرَّ اللّهَ شيئاً وسيجزي اللّهُ الشاكرين﴾ [آل عمران: ١٤٤]، والشاكرون هم الذين ثبتوا على نعمة الإيمان فلم ينقلبوا على أعقابهم، وعلَّق سبحانه المزيد بالشكر، والمزيد منه لا نهاية له كما لا نهاية لشكره. وقد وقف سبحانه كثيراً من الجزاء على المشيئة كقوله: ﴿فسوف يغنيكُم اللّهُ من فضلهِ إنْ شاءَ﴾ [التوبة: ٢٨]، وقوله في الإجابة: ﴿فيكشفُ ما تَدْعُونَ إليه إنْ شاءَ﴾ [الأنعام: ٤١]، وقوله في الرزق: ﴿يرزقُ مَنْ يشاء﴾ [البقرة: ٢١٢]، وفي المغفرة: ﴿يغفرُ لمن يشاء﴾ [آل عمران: ١٢٩]، والتوبة: ﴿ويتوبُ اللّهُ على من يشاء﴾ [التوبة: ٥١]، وأطلق جزاء الشكر إطلاقاً حيث ذكر، كقوله: ﴿وسنجزي الشاكرين﴾ [آل عمران: ١٤٥]، ﴿وسيجزي الله الشاكرين﴾ [آل عمران: ١٤٤]، ولما عرف عدو الله إبليس قدر مقام الشكر وأنه من أجل المقامات وأعلاها، جعل غايته أن يسعى في قطع الناس عنه فقال: ﴿ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شَمائِلهم ولا تجدُ أكثرَهم شاكرين﴾ [الأعراف: ١٧]، ووصف الله سبحانه الشاكرين بأنهم قليل من عباده فقال تعالى: ﴿وقليلٌ من عبادي الشكور﴾ [سبأ: ١٣].

وذكر الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه بأنه سمع رجلاً يقول: اللهمَّ اجعلني من الأقلين! فقال: ما هذا؟ فقال: يا أمير المؤمنين إن الله قال: ﴿وما آمنَ معه إلا قليل﴾ [هود: ٤٠]. وقال تعالى: ﴿وقليلٌ من عبادي الشكور﴾ [سبأ: ١٣] وقال: ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ وقليلٌ ما هم﴾ [ص: ٢٤] فقال عمر: صدقت. وقد أثنى الله سبحانه وتعالى على أول رسول بعثه إلى أهل الأرض بالشكر، فقال: ﴿ذريةَ من حملنا مع نوح إنَّه كانَ عبداً شكوراً﴾ [الإسراء: ٣] وفي تخصيص نوح ها هنا بالذكر وخطاب العباد بأنَّهم ذريته إشارة إلى الاقتداء به فإنه أبوهم الثاني، فإنَّ الله تعالى لم يجعل للخلق بعد الغرق نسلاً إلا من ذريته، كما قال تعالى: ﴿وجعلنا ذُرِّيَّتهُ هُم الباقين﴾ [الصافات: ٧٧] فأمر الذرية أن يتشبهوا بأبيهم في الشكر فإنه كان عبداً شكوراً.

وقد أخبر سبحانه إنما يعبده من شكره، فمن لم يشكره لم يكن من أهل عبادته فقال: ﴿واشكرُوا لله إنْ كُنتم إيَّاه تَعْبُدون﴾ [البقرة: ١٧٢] وأمر عبده موسى أن يتلقى ما آتاه من النبوة والرسالة والتكليم بالشكر، فقال تعالى: ﴿يا موسى إني اصطفيتُك على الناسِ برسالاتي وبكلامي فخذْ ما آتيتُك وكنْ من الشاكرين﴾ [الأعراف: ١٤٤] وأول وصية وصَّى بها الإنسان بعدما عقل عنه بالشكر له وللوالدين، فقال: ﴿ووصينا الإنسانَ بوالديْهِ حملتهُ أمُّه وَهْناً على وَهْن وفصالُه في عامين أن اشكر لي ولوالديْكَ إليَّ المصير﴾ [لقمان: ١٤].

وأخبر أن رضاه في شكره فقال تعالى: ﴿وإنْ تشكروا يَرْضَهُ لكم﴾ [الزمر: ٧] وأثنى سبحانه على خليله إبراهيم بشكر نعمه فقال: ﴿ إن إبراهيمَ كان أمَّةً قانتاً لله حنيفاً ولم يكُ من المشركين، شاكراً لأنعمه اجتباهُ وهداه إلى صراطٍ مستقيم ﴾ [النحل: ١٢١] فأخبر عنه سبحانه بأنه أمة، أي قدوة يؤتم به في الخير، وأنه قانتاً لله، والقانت هو المطيع المقيم على طاعته، والحنيف هو المقبل على الله، المعرض عما سواه، ثم ختم له بهذه

الصفات بأنه شاكر لأنعمه، فجعل الشكر غاية خليله.

وأخبر سبحانه أن الشكر هو الغاية من خلقه وأمره، بل هو الغاية التي خلق عبيده لأجلها ﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتِكم لا تعلمونَ شيئاً وجعلَ لكم السمعَ والأبصارَ والأفئدةَ لعلَّكم تشكرون﴾ [النحل: ٧٨] فهذه غاية الخلق، وأما غاية الأمر فقال: ﴿ولقد نصرَكم الله ببدرٍ وأنتم أذلّة فاتقوا الله لعلَّكم تشكرون﴾ [آل عمران: ٢٣] ويجوز أن يكون قوله ﴿لعلَّكُم تَشكرون﴾ تعليلاً لقضائه لهم بالنصر ولأمره لهم بالتقوى ولهما معاً، وهو الظاهر، فالشكر غاية الخلق والأمر، وقد صرح سبحانه بأنه غاية أمره وإرساله الرسول في قوله تعالى: ﴿كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتِنا ويزكّيكم ويعلِّمُكُم الكتابَ والحكمةَ ويعلِّمُكُم ما لم تَكونوا تَعلمون، فاذكروني أذكرْكُم واشكروا لي ولا تَكْفُرون﴾ [البقرة: ١٥٢]، قالوا: فالشكر مراد لنفسه، والصبر مراد لغيره، والصبر إنما حمد لإفضائه وإيصاله إلى الشكر، فهو خادم الشكر.

وقد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قام حتى تفطرت قدماه، فقيل له أتفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «أفلا أكون عبداً شكوراً». وثبت في المسند والترمذي أن النبي ﷺ قال لمعاذ: «والله إني لأحبُّك فلا تنسى أن تقول دبر كل صلاة: «اللهمَّ أعنّي على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك».

وقال ابن أبي الدنيا: حدثنا إسحاق بن إسماعيل، حدثنا أبو معاوية وجعفر بن عون، عن هشام بن عروة، قال: كان من دعاء النبي: «اللهمَّ أعنّي على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك». قال: وحدثنا محمود بن غيلان، حدثنا المؤمل بن إسماعيل، حدثنا حماد بن سلمة حدثنا حميد الطويل عن طلق بن حبيب عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «أربع من أُعطيهن فقد أُعطي خير الدنيا والآخرة: قلباً شاكراً، ولساناً

ذاكراً، وبدناً على البلاء صابراً، وزوجةً لا تبغيه خوناً في نفسها ولا في ماله» وذكر أيضاً من حديث القاسم بن محمد، عن عائشة، عن النبي ﷺ قال: «ما أنعم الله على عبدٍ نعمة فعلم أنها من عند الله إلا كتب الله له شكرها، وما علم الله من عبد ندامةً على ذنب إلا غفر الله له قبل أن يستغفره، وإن الرجل يشتري الثوب بالدينار فيلبسه فيحمد الله فما يبلغ ركبتيه حتى يغفر له».

وقد ثبت في صحيح مسلم عنه ﷺ أنه قال: «إن الله ليرضى عن العبد يأكل الأكلة فيحمده عليها، ويشرب الشربة فيحمده عليها»، فكان هذا الجزاء العظيم الذي هو أكبر أنواع الجزاء، كما قال تعالى: ﴿ورضوانٌ من الله أكبرُ﴾ [التوبة: ٧٢] في مقابلة شكره بالحمد، وذكر ابن أبي الدنيا من حديث عبدالله بن صالح: حدثنا أبو زهير يحيى بن عطارد القرشي عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يرزق الله عبداً الشكر فيحرمه الزيادة»، لأن الله تعالى يقول: ﴿لئنْ شكرتُم لأزيدنَّكُم﴾ [إبراهيم: ٧] وقال الحسن البصري: «إن الله ليمتع بالنعمة ما شاء، فإذا لم يشكر عليها قَلَبَها عذاباً»، ولهذا كانوا يسمون الشكر «الحافظ» لأنه يحفظ النعم الموجودة، و«الجالب» لأنه يجلب النعم المفقودة، وذكر ابن أبي الدنيا عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال لرجل من همذان: «إن النعمة موصولة بالشكر، والشكر يتعلق بالمزيد، وهما مقرونان في قرن، فلن ينقطع المزيد من الله حتى ينقطع الشكر من العبد».

وقال عمر بن عبد العزيز: «قيدوا نعم الله بشكر الله» وكان يقال «الشكر قيد النعم» وقال مطرف بن عبدالله: «لأن أعافى فأشكر أحب إلي من أن أبتلى فأصبر»، وقال الحسن: «أكثروا من ذكر هذه النعم فإن ذكرها شكر» وقد أمر الله تعالى نبيه أن يحدث بنعمة ربه فقال: ﴿وأمَّا بنعمةِ ربِّك فحدِّثْ﴾ [الضحى: ١١]، والله تعالى يحب من عبده أن يرى عليه أثر نعمته، فإن ذلك شكرها بلسان الحال، وقال علي بن الجعدي: سمعت

سفيان الثوري يقول: إن داود عليه الصلاة والسلام قال: الحمد لله حمداً كما ينبغي لكرم وجهه وعز جلاله، فأوحى الله إليه: يا دواد أتعبتَ الملائكة.

وقال شعبة: حدثنا المفضل بن فضالة، عن أبي رجاء العطاردي قال: خرج علينا عمران بن الحصين وعليه مطرف خزٍ لم نره عليه قبل ولا بعد، فقال: إن رسول الله ﷺ قال: «إذا أنعم الله على عبد نعمة يُحب أن يرى أثر نعمته على عبده»، وفي صحيفة عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، عن النبي ﷺ قال: «كلوا واشربوا وتصدقوا في غير مخيلة ولا سرف، فإن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده».

وذكر شعبة عن أبي إسحاق الأحوص، عن أبيه، قال: «أتيتُ رسول الله ﷺ وأنا قَشِفُ[1] الهيئة، فقال: هل لك من مال؟ قال: قلت: نعم، قال: من أي المال؟ قلت: من كل المال، قد آتاني الله من الإبل والخيل والرقيق والغنم، قال: فإذا آتاك الله مالاً فليُرَ عليك».

وفي بعض المراسيل: «إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده في مأكله ومشربه». وروى عبدالله بن يزيد المقري، عن أبي معمر، عن بكير بن عبد الله، رفعه: «من أُعطي خيراً فرؤي عليه سُمِّي حبيب الله محدثاً بنعمة الله، ومن أعطي خيراً ولم ير عليه سُمِّي بغيض الله معادياً لنعمة الله». وقال فضيل بن عياض كان يقال: من عرف نعمة الله بقلبه وحمده بلسانَه لم يستتم ذلك حتى يرى الزيادة، لقول الله تعالى: ﴿لئن شكرتُم لأزيدنَّكُم﴾ [إبراهيم: ٧]، وقال: من شكر النعمة أن يحدِّث بها. وقد قال تعالى في الحديث القدسي: «يا ابن آدم إذا كنت تتقلب في نعمتي وأنت تتقلب في معصيتي فاحذرني لأصرعك بين معاصي، يا ابن آدم اتقني ونم حيث شئت».

---

(١) قَشِفُ الهيئة: تارك للتنظف والغَسْل، يُقال: رجل متقشِّفٌ: إذا ترك النظافة والتّرفّه.

وقال الشعبي: الشكر نصف الإيمان،ة واليقين الإيمان كله، وقال أبو قلابة: لا تضركم دنيا شكرتموها. وقال الحسن: إذا أنعم الله على قوم سألهم الشكر، فإذا شكروه كان قادراً على أن يزيدهم، وإذا كفروه كان قادراً على أن يبعث نعمته عليهم عذاباً، وقد ذم الله سبحانه الكنود، وهو الذي لا يشكر نعمه. قال الحسن: «إن الإنسان لربه لكنود، يعد المصائب وينسى النعم» وقد أخبر النبي ﷺ أن النساء أكثر أهل النار بهذا السبب، قال: «لو أحسنت إلى إحداهنَّ الدهرَ ثم رأتْ منك شيئاً قالت: ما رأيتُ منكَ خيراً قط». فإذا كان هذا بترك شكر نعمة الزوج، وهي في الحقيقة من الله، فكيف بمن ترك شكر نعمة الله؟!.

يـا أيُّهـا الـظالم في فـعـلـه والـظلمُ مردودٌ عـلى من ظَلَم
إلى مـتى أنـتَ وحـتى مـتى تشكـو المصيباتِ وتنسى النعم

ذكر ابن أبي الدنيا من حديث أبي عبد الرحمن السلمي عن الشعبي عن النعمان بـن بشير قال: قال النبي ﷺ: «التحدث بالنعمة شكر وتركها كفر، ومن لا يشكر القليل لا يشكر الكثير، ومن لا يشكر الناس لا يشكر الله، والجماعة بركة، والفرقة عذاب». وقال مطرف بن عبدالله: نظرت في العافية والشكر فوجدت فيهما خير الدنيا والآخرة، ولأن أعافى فأشكر، أحب إلي من أن أبتلى فأصبر، ورأى بكر بن عبدالله المزني حمالاً عليه حمله وهو يقول: الحمد لله، أستغفر الله، قال: فانتظرته حتى وضع ما على ظهره وقلت له: أما تحسن غير هذا؟ قال: بلى أحسن خيراً كثيراً، أقرأ كتاب الله، غير أن العبد بين نعمة وذنب، فأحمد الله على نعمه السابغة، وأستغفره لذنوبي، فقلت: الحمَّالُ أفقهُ من بكر.

وذكر الترمذي من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال: «خرج رسول الله ﷺ على أصحابه فقرأ عليهم سورة الرحمن من أولها إلى آخرها فسكتوا، فقال: قرأتها على الجن ليلة الجن فكانوا أحسنَ رداً منكم، كنت كلما أتيت على قوله: ﴿فبأيِّ آلاءِ ربِّكُما تُكَذِّبَان﴾ قالوا: «لا بشيء من

نعمك ربنا نكذب فلك الحمد». وقال معشر: لما قيل لآل داود: ﴿اعملوا آلَ داودَ شكراً﴾ لم يأت على القوم ساعة إلا وفيهم مصلٍ.

وقال عون بن عبدالله: قال بعض الفقهاء إني رأيت في أمري، لم أر خيراً إلا شر معه إلا المعافاة والشكر، فرب شاكر في بلائه ورُب معافىً غير شاكر، فإذا سألتم الله فاسألوهما جميعاً، وقال أبو معاوية: لبس عمر بن الخطاب قميصاً، فلما بلغ ترقوته قال: الحمد لله الذي كساني ما أواري به عورتي، وأتجمل به في حياتي، ثم مدَّ يديه فنظر شيئاً يزيد على يديه فقطعه، ثم أنشأ يحدث، قال: سمعت رسول الله يقول: «من لبس ثوباً ـ أحسبه جديداً ـ فقال حين يبلغ ترقوته، أو قال قبل أن يبلغ ركبتيه مثل ذلك، ثم عمد إلى ثوبه الخَلِقَ فكسا به مسكيناً لم يزل في جوار الله، وفي ذمة الله، وفي كنف الله، حيّاً وميتاً ما بقي من ذلك الثوب سلك».

وقال عون بن عبد الله: لبس رجل قميصاً جديداً فحمد الله فغفر له، فقال رجل: ارجع حتى أشتري قميصاً فألبسه وأحمد الله. وقال شريح: ما أصيب عبد بمصيبة إلّا كان لله فيها ثلاثة نعم: ألا تكون كانت في دينه، وألا تكون أعظم مما كانت، وأنها لا بد كائنة فقد كانت.

وقال عبدالله بن عمر بن عبد العزيز: ما قلَّبَ عمر بن عبد العزيز بصره إلى نعمة أنعم الله بها عليه إلا قال: اللهم إني أعوذ بك أن أبدل نعمتك كفراً. وأن أكْفرها بعد أن عرفتُها، وأن أنساها ولا أثني بها، وقال روح بن القاسم: تنسَّكَ رجل فقال: لا آكل الخبيص، لا أقوم بشكره، فقال الحسن: هذا أحمق، وهل يقوم بشكر الماء البارد؟!

وفي بعض الآثار الإلهية يقول الله عز وجل: «ابن آدم، خيري إليك نازل، وشرُّك إلي صاعد، أتحبب إليك بالنعم، وتتبغض إلي بالمعاصي، ولا يزال ملك كريم قد عرج إلي منك بعمل قبيح».

قال ابن أبي الدنيا حدثني أبو علي قال: كنت أسمع جاراً لي يقول في

الليل «يا إلهي خيرك عليَّ نازل وشري إليك صاعد، كم من ملك كريم قد صعد إليك مني بعمل قبيح، وأنت مع غناك عني تتحبب إليَّ بالنِّعم، وأنا مع فقري إليك وفاقتي أتمقت إليك بالمعاصي، وأنت في ذلك تخبرني وتسترني وترزقني. وكان أبو المغيرة إذا قيل له كيف أصبحت يا أبا محمد؟ قال: أصبحنا مغرَقين في النعم عاجزين عن الشكر يتحبّب إلينا ربنا وهو غني عنَّا ونتمقت إليه ونحن إليه محتاجون: وقال عبدالله بن ثعلبة: «إلهي من كرمك أنك تطاع ولا تُعصى، ومن حلمك أنك تُعصى وكأنَّك لا ترى، وأي زمن لم يعصك فيه سكان أرضك وأنت بالخير عواد. وكان معاوية بن قرة إذا لبس ثوباً جديداً قال بسم الله والحمد لله. وقال أنس بن مالك: «ما من عبد توكل بعبادة الله إلا عزم الله السموات والأرض تعبر رزقه، فجعله في أيدي بني آدم يعملونه حتى يدفع عنه إليه، فإن العبد قبله أوجب عليه الشكر، وإن أباه وجد الغني الحميد عباداً فقراء يأخذون رزقه ويشكرون له».

وقال يونس بن عبيد: «قال رجل لأبي تميمة: كيف أصبحت؟ قال أصبحت بين نعمتين لا أدري أيتهما أفضل، ذنوب سترها الله فلا يستطيع أن يعيرني بها أحد، ومودة قذفها الله في قلوب العباد لا يبلغها عملي».

وروى ابن أبي الدنيا عن سعيد المقبري عن أبيه عن عبدالله بن سلام أن موسى عليه السلام قال: «يا رب ما الشكر الذي ينبغي لك؟ قال: لا يزال لسانك رطباً من ذكري»، وروى سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، دعا رجل من الأنصار من أهل قباء النبي ﷺ فانطلقنا معه، فلما طعم وغسل يديه قال: الحمد لله الذي يُطْعِم ولا يُطْعَم، منّ علينا فهدانا وأطعمنا وسقانا، وكلَ بلاء حسن أبلانا، الحمد لله غير مُوَدَّعٍ ربي ولا مُكافأ ولا مكفور ولا مستغنى عنه، الحمد لله الذي أطعم من الطعام، وسقى من الشراب، وكسى من العري، وهدى من الضلالة، وبَصَّر من العمى، وفضل على كثير من خلقه تفضيلاً، الحمد لله رب العالمين».

وفي مسند الحسن بن الصلاح من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أنعم الله على عبد نعمة في أهل ولا مال أو ولد فيقول: ما شاء الله لا قوة إلا بالله ، فَيُرى فيه آفة دون الموت، ويذكر عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ دخل عليها فرأى كسرة ملقاة فمسحها وقال: يا عائشة أحسني جوار نعم الله فإنها قلَّما نفرت عن أهل بيت فكادت أن ترجع إليهم، ذكره ابن أبي الدنيا.

وقال الإمام أحمد حدثنا هاشم بن القاسم حدثنا صالح عن أبي عمران الجوني عن أبي الخلد قال: قرأت في مسألة داود أنه قال: «يا رب كيف لي أن أشكر وأنا لا أصل إلى شكرك إلا بنعمك»، قال فأتاه الوحي: «يا داود أليس تعلم أن الذي بك من النعم مني؟ قال: بلى يا رب، قال: فإني أرضى بذلك منك شكراً».

وقال عبدالله بن أحمد حدثنا أبو موسى الأنصاري حدثنا أبو الوليد عن سعيد بن عبد العزيز قال: كان من دعاء داود: سبحان مستخرج الشكر بالعطاء، ومستخرج الدعاء بالبلاء. وقال الإمام أحمد حدثنا أبو معاوية حدثني الأعمش عن المنهال عن عبدالله بن الحارث قال: أوحى الله إلى داود: «أحبني وأحب عبادتي وحببني إلى عبادي، قال يا رب هذا حبك وحب عبادتك فكيف أحببك إلى عبادك؟ قال: تذكرني عندهم فإنهم لا يذكرون مني إلا الحسن، فجل جلال ربنا وتبارك اسمه وتعالى جده وتقدست أسماؤه وجلَّ ثناؤه ولا إله غيره.

وقال أحمد حدثنا عبد الرزاق بن عمران قال: سمعت وهباً يقول: «وجدت في كتاب آل داود: بعزّتي إن من اعتصم بي فإن كادته السموات بمن فيهن والأرضون بمن فيهن فإني أجعل له من بين ذلك مخرجاً، ومن لم يعتصم بي فإني أقطع يديه من أسباب السماء وأخسف به من تحت قدميه الأرض فأجعله في الهواء ثم أَكِلُهُ إلى نفسه، كفى بي لعبدي مالاً، إذا كان

عبدي في طاعتي أعطيته قبل أن يسألني. وَأَجَبْتُه قبل أن يدعوني، وإني أعلم بحاجته التي ترفق به من نفسه.

وقال أحمد حدثنا يسار حدثنا حفص حدثنا ثابت قال: كان داود عليه السلام قد جزأ ساعات الليل والنهار على أهله، فلم يكن ساعةً من ليل أو نهار إلا وإنسان من آل داود قائم يصلي فيها، قال: فعمهم تبارك وتعالى في هذه الآية ﴿اعملوا آل داود شكراً، وقليلٌ من عبادي الشكور﴾.

قال أحمد وحدثنا جابر بن زيد عن المغيرة بن عيينة، قال داود، يا رب هل بات أحد من خلقك الليلة أطول ذكراً لك مني؟ فأوحى الله إليه: نعم الضفدع، وأنزل الله عليه: ﴿اعملوا آلَ داودَ شكراً وقليلٌ من عبادي الشَّكُور﴾ قال يا رب: كيف أطيق شكرك وأنت الذي تنعم عليَّ، ثم ترزقني على النعمة الشكر ثم تزيدني نعمة بعد نعمة فالنعم منك والشكر منك، فكيف أطيق شكرك؟ قال: الآن عرفتني يا داود. قال أحمد وحدّثنا عبد الربيع بن صبيح عن الحسن قال نبي الله داود: «إلهي لو أن لكل شعرة مني لسانين يسبحانك الليل والنهار والدهر ما وفيت حق نعمة واحدة».

وذكر ابن أبي الدنيا عن أبي عمران الجوني عن أبي الخلد قال: قال موسى يا رب كيف لي أن أشكرك وأصغر نعمة وضعتها عندي من نعمك لا يجازي بها عملي كله، قال فأتاه الوحي: يا موسى الآن شكرتني.

قال بكر بن عبدالله: ما قال عبد قط الحمد لله إلا وجبت عليه نعمة بقوله الحمد لله فجزاء تلك النعمة أن يقول: الحمد لله، فجاءت نعمة أخرى فلا تنفد نعم الله، وقال الحسن سمع نبي الله رجلاً يقول: «الحمد لله بالإسلام، فقال: إنك لتحمد الله على نعمة عظيمة، وقال خالد بن معدان: سمعت عبد الملك بن مروان يقول: «ما قال عبد كلمة أحب إلى الله وأبلغ في الشكر عنده من أن يقول: الحمد لله الذي أنعم علينا وهدانا للإسلام».

وقال سليمان التميمي: إن الله سبحانه أنعم على عبده على قدره وكلفهم الشكر على قدرتهم، وكان الحسن إذا ابتدأ حديثه يقول: الحمد لله، اللهم ربنا لك الحمد بما خلقتنا ورزقتنا وهديتنا وعلمتنا وأنقذتنا وفرجت عنا، لك الحمد بالإسلام والقرآن، ولك الحمد بالأهل والمال والمعافاة، كَبَتَّ عدونا وبسطت رزقنا، وأظهرت أمتنا وجمعت فرقتنا، وأحسنت معافاتنا، ومن كل ما سألناك ربنا أعطيتنا، فلك الحمد على ذلك حمداً كثيراً، لك الحمد بكل نعمة أنعمت بها علينا في قديم أو حديث أو سراً أو علانية أو خاصة أو عامة، أو حي أو ميت أو شاهد أو غائب، لك الحمد حتى ترضى، ولك الحمد إذا رضيت.

وقال الحسن: قال موسى: يا رب كيف يستطيع آدم أن يؤدي شكر ما صنعت إليه، خلقته بيدك ونفخت فيه من روحك، وأسكنته جنّتك، وأمرت الملائكة فسجدوا له؟ فقال: يا موسى علم أن ذلك مني فحمدني عليه، فكان ذلك شكر ما صنعت إليه. وقال سعد بن مسعود الثقفي إنما سمي نوح عبداً شكوراً لأنه لم يلبس جديداً ولم يأكل طعاماً إلا حَمَدَ الله. وكان علي بن أبي طالب إذا خرج من الخلاء مسح بطنه بيده وقال: يا لها من نعمة لو يعلم العباد شكرها.

وقال مخلد بن الحسين كان يقال: الشكر ترك المعاصي، وقال أبو حازم: كل نعمة لا تقرِّب من الله فهي بلية. وقال سليمان: ذكر النعم يورث الحب لله. وقال حماد بن زيد: حدَّثنا ليث عن أبي بردة قال: قدمت المدينة فلقيت عبدالله بن سلام فقال لي ألَا تدخل بيتاً دخله النبي ﷺ ونطعمك سويقاً وتمراً؟ ثم قال: إن الله إذا جمع الناس غداً ذكّرهم بما أنعم عليهم، فيقول العبد ما آية ذلك فيقول: آية ذلك أنك كنت في كربة كذا وكذا قد دعوتني فكشفتها، وآية ذلك أنك كنت في سفر كذا وكذا فاستصحبتني فصحبتك، قال: يذكره حتى يذكر، فيقول: آية ذلك أنك خطبت فلانة بنت فلان وخطبها معك خُطَّاب فزوجتك ورددتهم، يقف

عبده بين يديه فيعدد عليه نعمه فبكى ثم بكى ثم قال: إني لأرجو الله أن لا يقعد الله عبداً بين يديه فيعذبه.

وروى ليث بن أبي سليم عن عثمان عن ابن سيرين عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ يؤتى بالنعم يوم القيامة والحسنات والسيئات فيقول الله عز وجل لنعمة من نعمه: «خذي حقك من حسناته فما تترك له من حسنة إلا ذهبت بها».

وقال بكر بن عبدالله المزني: ينزل بالعبد الأمر فيدعو الله فيُصرف عنه، فيأتيه الشيطان فيضعف شكره، يقول: إن الأمر كان أيسر مما تذهب إليه، قال: أو لا يقول العبد كان الأمر أشد مما أذهب إليه، ولكن الله صرفه عني. وذكر ابن أبي الدنيا عن صدقة بن يسار قال: بينا داود عليه السلام في محرابه إذ مرت به ذرة فنظر إليها وفكر في خلقها وعجب منها، وقال ما يعبؤ الله بهذه؟ فأنطقها الله فقالت: يا داود أتعجبك نفسُك؟ فوالذي (نفسي) بيده لأنا على ما آتاني الله من فضله أشكر منك على ما آتاك الله من فضله.

وقال أيوب: إن من أعظم نِعَم الله على عبده أن يكون مأموناً على ما جاء به النبي ﷺ. وقال سفيان الثوري: كان يقال ليس بفقيه من لم يعد البلاء نعمة والرخاء مصيبة. وقال زازان: مما يجب لله على ذي النعمة بحق نعمته أن لا يتوصل بها إلى معصية. قال ابن أبي الدنيا أنشدني محمود الوراق:

إذا كان شكري نعمة الله نعمة ... عليَّ له في مثلها يجبُ الشكرُ
فكيف وقوعُ الشكر إلا بفضلهِ ... وإن طالتِ الأيَّامُ واتَّصَل العمرُ
إذا مسَّ بالسَّرَّاءِ عمَّ سرورُها ... وإن مسَّ بالضرَّاءِ أعقَبها الأجرُ
وما منهما إلا لـه فيه مِنَّةٌ ... تضيقُ بها الأوهامُ والبَرُّ والبحرُ

وقد روى الدراوردي عن عمرو بن أبي عمرو عن سعيد المقبري عن أبي

هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ يعني قال الله عز وجل: أن المؤمن عندي بمنزلة كل خير، يحمدني وأنا أنزع نفسه من بين جنبيه. ومر محمد بن المنكدر بشاب يغامز امرأة فقال: يا فتى ما هذا جزاء نعم الله عليك. وقال حماد بن سلمة عن ثابت قال: قال أبو العالية: إني لأرجو أن لا يهلك عبد بين اثنتين: نعمة يحمد الله عليها وذنب يستغفر منه.

وكتب ابن السماك إلى محمد بن الحسن حين ولي القضاء بالرقة (أما بعد) فلتكن التقوى من بالك على كل حال، وخف الله من كل نعمة أنعم بها عليك من قلة الشكر عليها مع المعصية بها، فإن في النعم حجة وفيها تبعة، فأما الحجة بها فالمعصية بها، وأما التبعة فيها فقلة الشكر عليها، فعفى الله عنك كلما ضيعت من شكر أو ركبت من ذنب أو قصرت من حق. ومر الربيع بن أبي راشد برجل به زمانة فجلس يحمد الله ويبكي، قيل له ما يبكيك؟ قال: ذكرت أهل الجنة وأهل النار فشبهت أهل الجنة بأهل العافية وأهل النار بأهل البلاء، فذلك الذي أبكاني.

وقد روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ إذا أحب أحدكم أن يرى قدر نعمة الله عليه فلينظر إلى من تحته ولا ينظر إلى من فوقه، قال عبدالله بن المبارك: أخبرني يحيى بن عبدالله قال: سمعت أبي قال: سمعت أبي هريرة فذكره.

وقال ابن المبارك حدثنا يزيد بن إبراهيم عن الحسن قال: قال أبو الدرداء من لم يعرف نعمة الله عليه إلا في مطعمه ومشربه فقد قل عمله و حضر عذابه. قال ابن المبارك: أخبرنا مالك بن أنس عن إسحق بن عبدالله بن أبي طلحة عن أنس رضي الله عنه قال: سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه سلَّم على رجل فرد عليه السلام فقال عمر للرجل: كيف أنت؟ قال الرجل: أحمد إليك الله، قال: هذا ما أردت منك. قال ابن المبارك: وأخبرنا مسعود عن علقمة بن مرقد عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: لعلنا نلتقي في اليوم مراراً يسأل بعضنا عن بعض ولم يرد بذلك إلا

ليحمد الله عز وجل. وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿وأسبغَ عليكم نعمه ظاهرةً وباطنةً﴾ [لقمان: ٢٠] قال: لا إله إلا الله. وقال ابن عيينة: ما أنعم الله على العباد نعمة أفضل من أن عرفهم لا إله إلا الله، قال: وإن لا إله إلا الله لهم في الآخرة كالماء في الدنيا.

وقال بعض السلف في خطبته يوم عيد: أصبحتم زهراً وأصبح الناس غيراً، أصبح الناس ينسجون وأنتم تلبسون، وأصبح الناس يُعطون وأنتم تأخذون، وأصبح الناس ينتجون وأنتم تركبون، وأصبح الناس يزرعون وأنتم تأكلون، فبكى وأبكاهم.

وقال عبدالله بن قرط الأزدي ـ وكان من الصحابة ـ على المنبر وكان يوم أضحى ورأى على الناس ألوان الثياب: يا لها من نعمة ما أشبعها، ومن كرامة ما أظهرها، ما زال عن قوم شيئاً أشد من نعمة لا يستطيعون ردها، وإنما تثبت النعمة بشكر المُنْعَم عليه للمنعِم.

وقال سلمان الفارسي رضي الله عنه: أن رجلاً بُسط له من الدنيا فانْتُزع ما في يديه فجعل يحمد الله ويثني عليه حتى لم يكن له فراش إلا بارية، قال: فجعل يحمد الله ويثني عليه، وبسط لآخر من الدنيا فقال لصاحب البارية: أرأيتك أنت على ما تحمد الله؟ قال: أحمده على ما لو أعطيت به ما أعطي الخلق لم أعطهم إياه. قال: وما ذاك؟ قال: أرأيتك بصرك، أرأيتك لسانك، أرأيتك يديك، أرأيتك رجليك. وجاء رجل إلى يونس بن عبيد يشكو ضيق حاله فقال له يونس: أيسرك ببصرك هذه مائة ألف درهم؟ قال الرجل: لا، قال: فبيديك مائة ألف؟ قال: لا، فبرجليك مائة ألف؟ قال: لا، قال: فذكره نعم الله عليه، فقال يونس: أرى عندك مئين الألوف وأنت تشكو الحاجة، وكان أبو الدرداء يقول: الصحة: الملك.

وقال جعفر بن محمد رضي الله عنه: فَقَد أبي بغلةً له فقال: إنْ ردَّها الله لأحمدنه بمحامد يرضاها فما لبث أن أتي بسرجها ولجامها، فركبها فلما

استوى عليها وضم إليه ثيابه رفع رأسه إلى السماء فقال: الحمد لله لم يزد عليها، فقيل له في ذلك، فقال: هل تركت وأبقيت شيئاً جعلت الحمد كله لله.

وروى ابن أبي الدنيا من حديث سعد بن إسحاق بن كعب بن عجرة عن أبيه عن جده قال: بعث رسول الله ﷺ بعثاً من الأنصار وقال: إن سلَّمهم الله وغَنِمهم فإن لله عليَّ في ذلك شكراً، قال: فلم يلبثوا أن غنموا وسلموا، فقال بعض أصحابه: سمعناك تقول: إن سلمهم الله وغنمهم فإن لله عليَّ في ذلك شكراً؟ قال: قد فعلت «اللهم لك الحمد شكراً ولك المن فضلاً».

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، قال محمد بن المنكدر لأبي حازم: يا أبا حازم ما أكثر من يلقاني فيدعو لي بالخير، ما أعرفهم وما صنعت إليهم خيراً قط؟ فقال أبو حازم لا تظن أن ذلك من قبلك، ولكن انظر إلى الذي ذلك من قَبلِهِ فاشكره، وقرأ أبو عبد الرحمن ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ سيجعلُ لهم الرحمن وُدّاً﴾ [مريم: ٩٦]. وقال علي بن الجعد حدثنا عبد العزيز بن أبي سلمة الماجشون حدثني من أصدقه، أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه كان يقول في دعائه: أسألك تمام النعمة في الأشياء كلها، والشكر لك عليها حتى ترضى وبعد الرضا، والخيرة في جميع ما تكون فيه الخيرة بجميع ميسور الأمور كلها لا معسورها يا كريم.

وقال الحسن: ما أنعم الله على عبد نعمة فقال: الحمد لله إلا كان ما أعطي أكثر مما أخذ، قال ابن أبي الدنيا: وبلغني عن سفيان بن عيينة أنه قال: هذا خطأ لا يكون فعل العبد أفضل من فعل الله، ثم قال: وقال بعض أهل العلم إنما تفسير هذا أن الرجل إذا أنعم الله عليه نعمة وهو ممن يجب عليه أن يحمده عرفه ما صنع به فيشكر الله كما ينبغي له أن يشكره، فكان الحمد له أفضل.

قلت: لا يلزم الحسن ما ذُكر عن ابن عيينة، فإن قوله الحمد لله

نعمة من نعم الله، والنعمة التي حمد الله عليها أيضاً نعمة من نعم الله، وبعض النعم أجل من بعض، فنعمة الشكر أجلُّ من نعمة المال والجاه والولد والزوجة ونحوها والله أعلم. وهذا لا يستلزم أن يكون فعل العبد أفضل من فعل الله وإن دل على أن فعل العبد للشكر قد يكون أفضل من بعض مفعول الله، وفعل العبد هو مفعول الله، ولا ريب أن بعض مفعولاته أفضل من بعض.

وقال بعض أهل العلم: لنعم الله علينا فيما رُوي عنا من الدنيا أفضل من نعمه علينا فيما بسط لنا منها، وذلك أن الله لم يرض لنبيه الدنيا، فإن أكون فيما رضي الله لنبيه وأَحَبَّ له أحبُّ إليَّ من أن أكون فيما كره له وسخطه.

وقال ابن أبي الدنيا بلغني عن بعض العلماء أنه قال: ينبغي للعالم أن يحمد الله على ما زُوي عنه من شهوات الدنيا كما يحمده على ما أعطاه، وأين يقع ما أعطاه الله، والحساب يأتي عليه، إلى ما عافاه الله ولم يبتله به فيشغل قلبه ويتعب جوارحه، فيشكر الله على سكون قلبه وجمع همه.

وحدَّث عن ابن أبي الحواري قال: جلس فضيل بن عياض وسفيان بن عيينة ليلةً إلى الصباح يتذاكران النعم، فجعل سفيان يقول: «أنعم الله علينا في كذا وكذا، أنعم الله علينا في كذا فعل بنا كذا»، وحدثنا عبدالله بن داود عن سفيان في قوله: ﴿سنستدرجُهم من حيثُ لا يَعلمون﴾ [القلم: ٤٤] قال: يسبغ عليهم النعم ويمنعهم الشكر. وقال غير سفيان: كلما أحدثوا ذنباً أحدث لهم نعمة. وسُئل ثابت البناني عن الاستدراج فقال: ذلك مكر الله بالعباد المضيِّعين، وقال يونس في تفسيرها: أن العبد إذا كانت له عند الله منزلة فحفظها وبقي عليها ثم شكر الله بما أعطاه، أعطاه أشرف منها، وإذا هو ضيع الشكر استدرجه الله، وكان تضييعه الشكر استدراجاً. وقال أبو حازم: نعمة الله فيما زُوي عني من الدنيا أعظم من نعمته فيما أعطاني منها، إني رأيته أعطاها أقواماً فهلكوا،

وكل نعمة لا تقرب من الله فهي بلية، وإذا رأيت الله يتابع عليك نعمه وأنت تعصيه فاحذره.

وذكر كاتب الليث عن هقل عن الأوزاعي أنه وعظهم فقال في موعظته: أيها الناس تقووا بهذه النعم التي أصبحتم فيها، على الهرب من نار الله الموقدة التي تتطلع على الأفئدة فإنكم في دار، الثوى فيها قليل وأنتم فيها مرجون خلائف من بعد القرون الذين استقبلوا من الدنيا أنفعها وزهرتها، فهم كانوا أطول منكم أعماراً وأمد أجساماً وأعظم آثاراً، فقطعوا الجبال، وجابوا الصخور، ونقبوا في البلاد مؤيدين ببطش شديد وأجسام كالعماد، فما لبثت الأيام والليالي أن طوت مددهم وعفت آثارهم وأخوت منازلهم وأنست ذكرهم فما تحس منهم من أحد ولا تسمع لهم ركزاً، كانوا يلهون آمنين لبيات قوم غافلين أو لصباح قوم نادمين، ثم إنكم قد علمتم الذي نزل بساحتهم بياتاً من عقوبة الله، فأصبح كثير منهم في دارهم جاثمين، وأصبح الباقون ينظرون في آثارهم نقمة وزوال نعمة ومساكن خاوية، فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم وعبرة لمن يخشى، وأصبحتم من بعدهم في أجل منقوص، ودنيا مقبوضة، وزمان قد ولى عفوه، وذهب رخاؤه، فلم يبق منه إلا حماة شر وصبابة كدر وأهاويل عبر وعقوبات غير وإرسال فتن وتتابع زلازل ورذلة خلف، بهم ظهر الفساد في البر والبحر، ولا تكونوا أشباهاً لمن خدعه الأمل وغره طول الأجل وتبلّغ بطول الأماني، نسألُ الله أن يجعلنا وإياكم ممن وعى إنذاره وعقل بشراه فمهد لنفسه.

وكان يقال: الشكر ترك المعصية، وقال ابن المبارك: قال سفيان ليس بفقيه من لم يعد البلاء نعمة والرخاء مصيبة. وكان مروان بن الحكم إذ ذكر الإسلام قال: بنعمة ربي وصلت إليه لا بما قدمت يدي ولا بإرادتي إني كنت خاطئاً.

وكم من مدخل لو مِتُّ فيه ... لكنتُ فيه نكالاً في العشيرة
وُقيتُ السوءَ والمكروه فيه ... وظفرتُ بنعمة منه كبيرة

وكم من نعمةٍ لله تُمسي وتُصبح في العيان وفي السريرة

ودعي عثمان بن عفان رضي الله عنه إلى قوم على ريبة فانطلق ليأخذهم فتفرقوا قبل أن يبلغهم فأعتق رقبة شكراً لله أن لا يكون جرى على يديه خزي مسلم. قال يزيد بن هرون: أخبرنا أصبغ بن يزيد أن نوحاً ﷺ كان إذا خرج من الخلاء قال: الحمد لله الذي أذاقني لذته وأبقي منفعته في جسدي وأذهب عني أذاه، فسمي عبداً شكوراً. وقال ابن أبي الدنيا: حدثني العباس بن جعفر عن الحارث بن شبل قال: حدثتنا أم النعمان أن عائشة حدثتها عن النبي ﷺ أنه لم يقم عن خلاء قط إلا قاله. وقال رجل لأبي حازم: ما شكر العينين يا أبا حازم؟ قال: إن رأيت بهما خيراً أعلنته وإن رأيت بهما شراً سترته، قال: فما شكر الأذنين؟ قال: إن سمعت بهما خيراً وعيته، وإن سمعت بهما شراً دفعته، قال: فما شكر اليدين؟ قال: لا تأخذ بهما ما ليس لهما ولا تمنع حقاً لله هو فيهما، قال: فما شكر البطن؟ قال: أن يكون أسفله طعاماً وأعلاه علماً، قال: فما شكر الفرج؟ قال: قال الله: ﴿والذينَ هم لفروجِهم حافظونَ إلاَّ على أزواجَهم أو ما ملكتْ أيمانُهم فإنَّهم غيرُ ملومينَ، فمنِ ابْتغى وراءَ ذلك فأولئكَ هم العَادُون﴾ [المؤمنون: ٧] قال: فما شكر الرجلين؟ قال إن علمت ميتاً تغبطه استعملت بهما عمله، وإن مقته رغبت عن عمله وأنت شاكر لله.

وأما من شكر بلسانه ولم يشكر بجميع أعضائه، فمثله كمثل رجل له كساء فأخذ بطرفه ولم يلبسه فما ينفعه ذلك من الحر والبرد والثلج والمطر.

وذكر عبدالله بن المبارك أن النجاشي أرسل ذات يوم إلى جعفر وأصحابه فدخلوا عليه وهو في بيت عليه خلقان جالس على التراب، قال جعفر: فأشفقنا منه حين رأيناه على تلك الحال، فلما رأى ما في وجوهنا قال: إني أبشركم بما يسركم إنه جاءني من نحو أرضكم عين لي فأخبرني أن الله قد نصر نبيه ﷺ وأهلك عدوه وأسر فلان وفلان وقتل فلان وفلان، التقوا بواد يقال له بدر كثير الأراك كأني أنظر إليه كنت أرعى به لسيدي رجل من

بني ضمرة، فقال له جعفر: «ما بالك جالساً على التراب ليس تحتك بساط وعليك هذه الأخلاق ، قال: إنا نجد فيما أنزل الله على عيسى ﷺ أن حقاً على عباد الله أن يحدثوا لله تواضعاً عندما أحدث الله لهم من نعمه، فلما أحدث الله لي نصر نبيّه أحدثت لله هذا التواضع.

وقال حبيب بن عبيد: ما ابتلى الله عبداً ببلاء إلا كان له عليه فيه نعمة ألاَّ يكون أشد منه. وقال عبد الملك بن إسحاق: ما من الناس إلا مبتلى بعافية لينظر كيف شكره، أو بلية لينظر كيف صبره.

وقال سفيان الثوري: لقد أنعم الله على عبد في حاجة أكثر من تضرعه إليه فيها وكان رسول الله ﷺ إذا جاءه أمر يُسِرُّهُ خر لله ساجداً شاكراً له عز وجل. ذكره أحمد. وقال عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: «خرج علينا النبي ﷺ فتوجه نحو صدقته فدخل فاستقبل القبلة فخر ساجداً فأطال السجود، فقلت يا رسول الله: سجدت سجدة حسبت أن يكون الله قد قبض نفسك فيها، فقال: «إن جبريل أتاني فبشرني أن الله عز وجل يقول لك: من صلى عليك صليت عليه، ومن سلم عليك سلمت عليه فسجدت لله شكراً» ذكره أحمد.

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: خرجنا مع النبي ﷺ من مكة نريد المدينة، فلما كنا قريباً من عزور، نزل ثم رفع يديه ودعا الله ساعةً ثم خر ساجداً، فمكث طويلاً، ثم قام، فرفع يديه ساعةً ثم خر ساجداً ـ فعله ثلاثاً ـ وقال: إني سألت ربي وشفعت لأمتي فأعطاني ثلث أمتي فخررت ساجداً شكراً لربي، ثم رفعت رأسي فسألت ربي لأمتي فأعطاني ثلث أمتي، فخررت ساجداً لربي ثم رفعت رأسي فسألت ربي فأعطاني الثلث الآخر فخررت ساجداً لربي. رواه أبو داود.

وذكر محمد بن إسحاق في كتاب الفتوح قال: لما جاء المبشِّر يوم بدر بقتل أبي جهل استحلفه رسول الله ﷺ ثلاثة أيمان بالله الذي لا إله إلا هو لقد رأيته قتيلاً، فحلف له فخرَّ رسول الله ﷺ ساجداً.

وذكر سعيد بن منصور أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه سجد حين جاءه قتل مسيلمة. وذكر أحمد أن علياً رضي الله عنه سجد حين وجد ذا الثدية في الخوارج، وسجد كعب بن مالك في عهد النبي ﷺ لما بشر بتوبة الله عليه، والقصة في الصحيحين.

فإن قيل فنعم الله دائماً مستمرة على العبد فما الذي اقتضى تخصيص النعمة الحادثة بالشكر دون الدائمة، وقد تكون المستدامة أعظم، قيل الجواب من وجوه: أحدها أن النعمة المتجددة تُذَكِّر بالمستدامة، والإنسان موكل بالأدنى.

الثاني: أن هذه النعمة المتجددة تستدعي عبودية مجددة وكان أسهلها على الإنسان وأحبُّها إلى الله السجود شكراً له.

الثالث: أن المتجددة لها وقع في النفوس، والقلوب بها أعلق، ولهذا يُهَنَّأ بها ويُعَزَّى بفقدها.

الرابع: أن حدوث النعم توجب فرح النفس وانبساطها، وكثيراً ما يجر ذلك إلى الأشر والبطر، والسجود ذل لله وعبودية وخضوع، فإذا تلقى به نعمته لسروره وفرح النفس وانبساطها فكان جديراً بدوام تلك النعمة، وإذا تلقاها بالفرح الذي لا يحبه الله والأشر والبطر كما يفعله الجهال عندما يحدث الله لهم من النعم كانت سريعة الزوال وشيكة الانتقال وانقلبت نقمة، وعادت استدارجاً. وقد تقدم أمر النجاشي، فإن الله إذا أحدث لعبده نعمةً أحب أن يحدث لها تواضعاً، وقال العلاء بن المغيرة: بشَّرتُ الحسنَ بموت الحجاج وهو مختف، فخر لله ساجداً.

فصل: ومن دقيق نعم الله على العبد التي لا يكاد يُفطن لها أنه يغلق عليه بابه فيرسل الله إليه من يطرق عليه الباب يسأله شيئاً من القوت ليعرِّفه نعمته عليه.

وقال سلام بن أبي مطيع: دخلتُ على مريضٍ أعوده فإذا هو يئن،

فقلت له: اذكر المطروحين على الطريق، اذكر الذين لا مأوى لهم ولا لهم من يخدمهم، قال: ثم دخلت عليه بعد ذلك، فسمعته يقول لنفسه: اذكري المطروحين في الطريق، اذكري من لا مأوى له ولا له من يخدمه.

وقال عبد الله بن أبي نوح: قال لي رجل على بعض السواحل: كم عاملته تبارك اسمه بما يكره فعاملك بما تحب؟ قلت: ما أحصي ذلك كثرةً، قال: فهل قصدت إليه في أمر كربك فخذلك؟ قلت: لا والله. ولكنه أحسن إليَّ وأعانني. قال: فهل سألته شيئاً فلم يعطكه؟ قلت: وهل منعني شيئاً سألته؟ ما سألته شيئاً قط إلا أعطاني، ولا استعنت به إلا أعانني. قال: أرأيت لو أنَّ بعض بني آدم فعل بك بعض هذه الخلال ما كان جزاؤه عندك؟ قلت: ما كنت أقدر له مكافأة ولا جزاء. قال: فربُّك أحق وأحرى أن تدأب نفسك له في أداء شكره، وهو المحسن قديماً وحديثاً إليك، والله لشكره أيسر من مكافأة عباده، إنه تبارك وتعالى رضي من العباد بالحمد شكراً. وقال سفيان الثوري: ما كان الله لينعم على عبد في الدنيا فيفضحه في الآخرة، ويحق على المنعم أن يتم النعمة على من أنعم عليه.

وقال ابن أبي الحواري، قلت لأبي معاوية: ما أعظم النعمة علينا في التوحيد نسأل الله أن لا يسلبنا إياه. قال: يحق على المنعم أن يتم النعمة على من أنعم عليه، والله أكرم من أن ينعم بنعمة إلا أتمها، ويستعمل بعمل إلا قبله. وقال ابن أبي الحواري قالت لي امرأة: أنا في بيتي أمرٌ قد شغل قلبي. قلت: وما هو؟ قالت: أريد أن أعرف نعم الله عليَّ في طرفة عين، أو أعرف تقصيري عن شكر النعمة عليَّ في طرفة عين قلت تريدين ما لا تهتدي إليه عقولنا.

وقال ابن زيد: إنه ليكون في المجلس الرجل الواحد يحمد الله عز وجل فيقضي لذلك المجلس حوائجهم كلهم، قال: وفي بعض الكتب التي أنزلها الله تعالى أنه قال: «سُرّوا عبدي المؤمن، فكان لا يأتيه شيء إلا قال الحمد لله ما شاء الله، قال روِّعوا عبدي المؤمن، فكان لا يطلع عليه طليعة

من طلائع المكروه إلا قال الحمد لله، الحمد لله، فقال الله تبارك وتعالى: إن عبدي يحمدني حين روعته كما يحمدني حين سررته، أدخلوا عبدي دار عزي كما يحمدني على كل حالاته».

وقال وهب: عبدالله عابد خمسين عاماً فأوحى الله إليه إني قد غفرت لك، قال: أي رب وما تغفر لي ولم أذنب؟ فأذن الله لعرق في عنقه يضرب عليه فلم ينم ولم يصل ثم سكن فنام، ثم أتاه ملك فشكا إليه فقال: ما لقيت من ضربان العرق، فقال الملك: إن ربك يقول: إن عبادتك خمسين سنة تعدل سكون العرق.

وذكر ابن أبي الدنيا أن داود قال: يا رب أخبرني ما أدنى نعمك عليَّ فأوحى الله إليه يا داود تنفس فتنفس، قال هذا أدنى نعمي عليك.

فصل: وبهذا يتبين معنى الحديث الذي رواه أبو داود من حديث زيد بن ثابت وابن عباس: «إن الله لو عذب أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم لكانت رحمته خيراً لهم من أعمالهم». والحديث الذي في الصحيح: «لن يُنجي أحداً منكم عملُه، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل، فإن أعمال العبد لا تُوافي نعمة من نعم الله عليه».

أما قول بعض الفقهاء أن من حلف أن يحمد الله بأفضل أنواع الحمد كان بر يمينه أن يقول الحمد لله حمداً يوافي نعمه ويكافىء مزيده فهذا ليس بحديث عن رسول الله ﷺ ولا عن أحد من الصحابة وإنما هو إسرائيلي عن آدم، وأصح منه الحمد لله غير مكفي ولا مودع ولا مستغنى عنه ربنا، ولا يمكن حمد العبد وشكره أن يوافي نعمة من نعم الله فضلاً عن موافاته جميع نعمه، ولا يكون فعل العبد وحمده مكافئاً للمزيد، ولكن يحمل على وجه يصح، وهو أن الذي يستحقه الله سبحانه من الحمد حمداً يكون موافياً لنعمه ومكافئاً لمزيده وإن لم يقدر العبد أن يأتي به كما إذا قال الحمد لله ملء السموات وملء الأرض وملء ما بينهما وملء ما شئت من شيء

بعد وعدد الرمال والتراب والحصى والقَطْر، وعدد أنفاس الخلائق وعدد ما خلق الله وما هو خالق، فهذا إخبار عما يستحقه من الحمد لا عما يقع من العبد من الحمد.

فصل: وقال أبو المليح قال موسى «يا رب ما أفضل الشكر؟ قال: أن تشكرني على كل حال، وقال بكر بن عبدالله قلت لأخ لي أوصني، فقال: ما أدري ما أقول غير أنه ينبغي لهذا العبد أن لا يفتر من الحمد والاستغفار، فإن ابن آدم بين نعمة وذنب ولا تصلح النعمة إلا بالحمد والشكر، ولا يصلح بالذنب إلا بالتوبة والاستغفار فأوسعني علماً ما شئت.

وقال عبد العزيز بن داود: رأيت في يد محمد بن واسع قرحة فكأنه رأى ما شق عليَّ منها، فقال لي: أتدري ماذا لله عليَّ في هذه القرحة من نعمة حين لم يجعلها في حدقتي ولا طرف لساني ولا على طرف ذاكرتي، فهانت علي قرحته.

وروى الجويري عن أبي الورد عن الجلاح عن معاذ بن جبل رصي الله عنه أن رسول ﷺ أتى على رجل وهو يقول: اللهمَّ إني أسألك تمام النعمة، فقال ابن آدم: هل تدري ما تمام النعمة؟ قال: يا رسول الله دعوت دعوة أرجو بها الخير، فقال: إن تمام النعمة فوز من النار ودخول في الجنة.

وقال سهم بن سلمة: حدثت أن الرجل إذا ذكر اسم الله على أول طعامه وحمده على آخره لم يُسأل عن نعيم ذلك الطعام.

فصل: ويدل على فضل الشكر على الصبر أن الله يحب أن يُسأل العافية وما يسأل شيئاً أحب إليه من العافية كما في المسند عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قام أبو بكر رضي الله عنه على المنبر ثم قال: «سلوا الله العافية فإنه لم يعط عبداً بعد اليقين خيراً من العافية».

وفي حديث آخر إن الناس لم يعطوا في هذه الدنيا شيئاً أفضل من

العفو والعافية فسلوهما الله عز وجل، وقال لعمه العباس: يا عم أكثر من الدعاء بالعافية. وفي الترمذي قلت يا رسول الله علمني شيئاً أسأله الله؟ قال: سل الله العافية، فمكثت أياماً ثم جئت فقلت: علمني شيئاً أسأله الله؟ فقال لي: يا عباس يا عم رسول الله ﷺ سل الله العافية في الدنيا والآخرة. وقال في دعائه يوم الطائف: إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي غير أن عافيتك أوسع لي، فلاذ بعافيته، كما استعاذ بها في قوله: أعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك.

وفي حديث آخر «سلوا الله العفو والعافية والمعافاة» وهذا السؤال يتضمن العفو عما مضى والعافية في الحال والمعافاة في المستقبل بدوام العافية واستمرارها، وكان عبد الأعلى التيمي يقول: «أكثروا من سؤال الله العافية فإن المبتلى وإن اشتد بلاؤه ليس بأحق بالدعاء من المعافى الذي لا يأمن البلاء، وما المبتلون اليوم إلا من أهل العافية بالأمس، وما المبتلون بعد اليوم إلا من أهل العافية اليوم، ولو كان البلاء يجر إلى خير ما كنا من رجال البلاء، إنه رب بلاء قد أجهد في الدنيا وأخزى في الآخرة فما يؤمن من أطال المقام على معصية الله أن يكون قد بقي له في بقية عمره من البلاء ما يجهده في الدنيا ويفضحه في الآخرة، ثم يقول بعد ذلك: الحمد لله الذي إن نعد نعمه لا نحصيها وإن ندأب له عملاً لا نجزيها وإن نعمر فيها لا نبليها. ومر رسول الله ﷺ برجل يسأل الله الصبر، فقال: لقد سألت البلاء فاسأل العافية، وفي صحيح مسلم أنه ﷺ عاد رجلاً قد هفت ـ أي هزل ـ فصار مثل الفرخ، فقال ﷺ: هل كنت تدعو الله بشيء أو تسأله إياه؟ قال: نعم كنت أقول اللهمَّ ما كنت معاقبني به في الآخرة فعجّله لي في الدنيا، فقال رسول الله ﷺ: سبحانه لا تطيقه ولا تستطيعه، أفلا قلت: اللهمَّ آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار، فدعا الله له فشفاه. وفي الترمذي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: دعاء حفظته من رسول الله لا أدعه «اللهمَّ اجعلني أعظم شكرك، وأكثر ذكرك، وأتبع نصيحتك، وأحفظ وصيتك».

وقال شيبان: كان الحسن إذا جلس مجلساً يقول: «لك الحمد بالإسلام، ولك الحمد بالقرآن ولك الحمد بالأهل والمال، بسطت رزقنا وأظهرت أمننا وأحسنت معافاتنا ومن كل ما سألناك أعطيتنا، فلك الحمد كثيراً كما تنعم كثيراً، أعطيت خيراً كثيراً، وصرفت شراً كثيراً، فلوجهك الجليل الباقي الدايم الحمد»، وكان بعض السلف يقول: «اللهمَّ ما أصبح بنا من نعمة أو عافية أو كرامة في دين أو دنيا جرت علينا فيما مضى وهي جارية علينا فيما بقي فإنها منك وحدك لا شريك لك فلك الحمد بذلك علينا، ولك المن ولك الفضل، ولك الحمد عدد ما أنعمت به علينا وعلى جميع خلقك لا إله إلا أنت».

وقال مجاهد: إذا كان ابن عمر في سفر فطلع الفجر رفع صوته ونادى: سمع سامع بحمد الله ونعمه وحسن بلائه علينا، ثلاثاً، اللهمَّ صاحبنا فأفضل علينا عائذ بالله من النار ولا حول ولا قوة إلا بالله، ثلاثاً.

وذكر الإمام أحمد أن الله سبحانه أوحى إلى موسى بن عمران عليه السلام: يا موسى كن يقظان مرتاداً لنفسك أخداناً وكل خدن لا يواتيك على مسرتي فلا تصحبه فإنه عدو لك وهو يقسي قلبك، وأكثر من ذكري حتى تستوجب الشكر وتستكمل المزيد، وقال الحسن: خلق الله آدم حين خلقه فأخرج أهل الجنة من صفحته اليمنى وأخرج أهل النار من صفحته اليسرى، فدبوا على وجه الأرض منهم الأعمى والأصم المبتلى، فقال آدم: يا رب ألا سويت بين ولدي؟ قال: يا آدم إني أريد أن أشكر.

وفي السنن عنه ﷺ من قال حين يصبح: اللهمَّ ما أصبح بي من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك فلك الحمد ولك الشكر، إلا أدى شكر ذلك اليوم، ومن قال ذلك حين يمسي فقد أدَّى شكر ليلته. ويذكر عن النبي ﷺ من ابتلي فصبر وأُعطي فشكر وظُلِم فغفر وظَلَم فاستغفر، أولئك لهم الأمن وهم مهتدون، ويذكر عنه ﷺ أنه أوصى رجلاً بثلاث فقال: أكثر من ذكر الموت يشغلك عما سواه، وعليك بالدعاء

فإنك لا تدري متى يستجاب لك، وعليك بالشكر فإن الشكر زيادة.

ويذكر عنه ﷺ أنه كان إذا أكل قال: الحمد لله الذي أطعمني وسقاني وهداني وكل بلاء حسن أبلاني الحمدلله الرازق ذي القوة المتين، اللهمَّ لا تنزع منا صالحاً أعطيتنا ولا صالحاً رزقتنا واجعلنا لك من الشاكرين.

ويذكر عنه ﷺ أنه إذا أكل قال: «الحمد لله الذي أطعم وسقى وسوّغه وجعل له مخرجاً»، وكان عروة بن الزبير إذا أُتي بطعام لم يزل مخمراً حتى يقول هذه الكلمات: «الحمد لله الذي هدانا وأطعمنا وسقانا ونعّمنا، الله أكبر، اللهمَّ ألفتنا نعمتك ونحن بكل شر فأصبحنا وأمسينا بخير نسألك تمامها وشكرها لا خير إلا خيرك ولا إله غيرك إله الصالحين ورب العالمين، الحمد لله لا إله إلاّ الله ما شاء الله لا قوة إلاّ بالله اللهم بارك لنا فيما رزقتنا وقنا عذاب النار».

وقال وهب بن منبّه: رؤوس النعم ثلاثة: فأولها نعمة الإسلام التي لا تتم نعمة بها، والثانية نعمة العافية التي لا تطيب الحياة إلا بها، والثالثة نعمة الغنى التي لا يتم العيش إلا به.

وقدم سعيد الجريري من الحج فجعل يقول: «أنعم الله علينا في سفرنا بكذا وكذا ثم قال: تعداد النعم من الشكر» ومر وهب بُمبتلى أعمى مجذوم مقعد عريان به وضح وهو يقول: «الحمد لله على نعمه، فقال رجل كان مع وهب: أي شيء بقي عليك من النعمة تحمد الله عليها؟ فقال له المُبْتَلى: ارم ببصرك إلى أهل المدينة فانظر إلى كثرة أهلها أفلا أحمد الله أنه ليس فيها أحد يعرفه غيري».

ويذكر عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا أنعم الله على عبد نعمة فحمده عندها فقد أدَّى شكرها»، وذكر علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن بُختنصر أتى بدانيال فأمر به فحبس في جب وأضرى أسدين ثم خلَّى بينهما

وبينه ثم فتح عليه بعد خمسة أيام فوجده قائماً يصلي والأسدان في ناحية الجب لم يعرضا له، فقال له ما قلت حتى دفع عنك؟ قال قلت: «الحمد لله الذي لا ينسى من ذَكَرَهُ والحمد لله الذي لا يخيب من رجاه، والحمد لله الذي لا يكل من توكل عليه إلى غيره، والحمد لله الذي هو ثقتنا حين تنقطع عنا الحيل، والحمد لله الذي هو رجاؤنا حين يسوء ظننا بأعمالنا، والحمد لله الذي يكشف عنا ضرنا بعد كربتنا، والحمد لله الذي يجزي بالإحسان إحساناً، والحمد لله الذي يجزي بالصبر نجاة.

ويذكر عنه ﷺ أنه كان إذا نظر في المرآة قال: الحمدلله الذي أحسن خَلْقي وخُلُقي وزان مني ما شان من غيري.

وقال ابن سيرين: «كان ابن عمر يكثر النظر في المرآة وتكون معه في الأسفار فقلت له: ولم؟ قال: انظر فما كان في وجهي زين فهو في وجه غيري شين أحمد الله عليه» وسئل أبو بكر بن أبي مريم ما تمام النعمة؟ قال: أن تضع رجلاً على الصراط ورجلاً في الجنة، وقال بكر بن عبدالله: يا ابن آدم إن أردت أن تعرف قدر ما أنعم الله عليك فغمض عينيك.

وقال مقاتل في قوله: ﴿وأسبغَ عليكُم نِعَمَهُ ظاهرةً وباطنةً﴾ [لقمان: ٢٠] قال: أما الظاهرة فالإسلام وأما الباطنة فستره عليكم بالمعاصي.

وقال ابن شوذب قال عبدالله ـ يعني ابن مسعود رضي الله عنه: ـ إن لله على أهل النار مِنّة لو شاء أن يعذبهم بأشد من النار لعذبهم.

وقال أبو سليمان الداراني: جلساء الرحمن يوم القيامة من جعل فيهم خصالاً: الكرم والسخاء والحلم والرأفة والرحمة والشكر والبر والصبر، وقال أبو هريرة رضي الله عنه: من رأى صاحب بلاء فقال الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاك به وفضلني عليك وعلى جميع خلقه تفضيلاً فقد أدَّى شكر تلك النعمة، وقال عبدالله بن وهب سمعت عبد الرحمن بن زيد يقول: الشكر يأخذ بجذم الحمد وأصله وفرعه قال: ينظر في نعم الله، في بدنه

وسمعه وبصره ويديه ورجليه وغير ذلك، ليس من هذا شيء إلا فيه نعمة من الله، حق على العبد أن يعمل في النعمة التي هي في بدنه لله في طاعته ونعمة أخرى في الرزق، وحق عليه أن يعمل لله فيما أنعم عليه به من الرزق بطاعته، فمن عمل بهذا كان قد أخذ بجذم الشكر وأصله وفرعه.

وقال كعب: «ما أنعم الله على عبد من نعمة في الدنيا فشكرها لله وتواضع بها لله إلا أعطاه الله نفعها في الدنيا ورفع له بها درجة في الأخرى، وما أنعم الله على عبد نعمة في الدنيا، فلم يشكرها لله ولم يتواضع بها إلا منعه الله نفعها في الدنيا وفتح له طبقات من النار يعذبه إن شاء أو يتجاوز عنه».

وقال الحسن: من لا يرى لله عليه نعمة إلا في مطعم أو مشرب أو لباس فقد قَصُر علمه وحَضَر عذابه. وقال الحسن يوماً لبكر المزني: هات يا أبا عبدالله دعوات لإخوانك، فحمد الله وأثنى عليه وصلّى على النبي ﷺ ثم قال: والله ما أدري أي النعمتين أفضل عليَّ وعليكم، أنعمة المسلك أم نعمة المخرج إذا أخرجه منا، قال الحسن: إنها نعمة الطعام.

وقالت عائشة رضي الله عنها: «ما من عبد يشرب الماء القراح فيدخل بغير أذى ويخرج الأذى إلا وجب عليه الشكر، قال الحسن: يا لها من نعمة تدخل كل لذة وتخرج مسرحاً، لقد كان ملك من ملوك هذه القرية يرى الغلام من غلمانه يأتي الجبَّ فيكتال منه ثم يجرجر قائماً، فيقول: يا ليتني مثلك ما يشرب حتى يقطع عنه العطش، فإذا شرب كان له في تلك الشربة موتات، يا لها من نعمة.

وكتب بعض العلماء إلى أخ له، أما بعد: فقد أصبح بنا من نعم الله ما لا تحصيه مع كثرة ما نعصيه فما ندري أيهما نشكر أجميل ما يستر أم قبيح ما ستر، وقيل للحسن: ها هنا رجل لا يجالس الناس، فجاء إليه فسأله عن ذلك فقال: إني أمسي وأصبح بين ذنب ونعمة فرأيت أن أشغل نفسي عن الناس بالاستغفار من الذنب والشكر لله على النعمة، فقال له الحسن: أنت

عندي يا عبدالله أفقه من الحسن فالزم ما أنت عليه. وقال ابن المبارك سمعت علياً بن صالح يقول في قوله تعالى: ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾ [إبراهيم: ٧]، قال: أي من طاعتي، والتحقيق أن الزيادة من النعم، وطاعته من أجلِّ نعمه. وذكر ابن أبي الدنيا أن محارب بن دثار كان يقوم بالليل ويرفع صوته أحياناً: أنا الصغير الذي ربيته فلك الحمد، وأنا الضعيف الذي قويته فلك الحمد، وأنا الفقير الذي أغنيته فلك الحمد، وأنا الصعلوك الذي مولته فلك الحمد، وأنا العزب الذي زوجته فلك الحمد، وأنا الساغب الذي أشبعته فلك الحمد، وأنا العاري الذي كسوته فلك الحمد، وأنا المسافر الذي صاحبته فلك الحمد، وأنا الغائب الذي رددته فلك الحمد، وأنا الراجل الذي حملته فلك الحمد. وأنا المريض الذي شفيته فلك الحمد، وأنا السائل الذي أعطيته فلك الحمد، وأنا الداعي الذي أجبته فلك الحمد، ربنا ولك الحمد حمداً كثيراً.

وكان بعض الخطباء يقول في خطبته: اختطَّ لك الأنف فأقامه، وأتمه فأحسن تمامه، ثم أدار منك الحدقة فجعلها بجفون مطبقة؛ وبأشفار معلقة، ونقلك من طبقة إلى طبقة، وحنن عليك قلب الوالدين برقة ومقة. فنعمه عليك مورقة وأياديه بك محدقة.

وكان بعض العلماء يقول في قوله تعالى: ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾ [إبراهيم: ٣٤] سبحان من لم يجعل لأحد معرفة نعمه إلا العلم بالتقصير عن معرفتها كما لم يجعل لأحد إدراكه أكثر من العلم أنه لا يدرك، فجعل معرفة نعمه بالتقصير عن معرفتها شكراً كما شكر علم العالمين أنهم لا يدركونه فجعله إيماناً، علماً منه أن العباد لا يتجاوزون ذلك.

وقال عبدالله بن المبارك أخبرنا مثنى بن الصباح عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: خصلتان من كانتا فيه كتبه الله صابراً شاكراً، ومن لم يكونا فيه لم يكتبه الله صابراً شاكراً؛ من نظر في دينه إلى من هو فوقه فاقتدى به، ومن نظر في دنياه إلى من هو دونه

فحمد الله على ما فضله به عليه، كتبه الله صابراً شاكراً، ومن نظر في دينه إلى من هو دونه ونظر في دنياه إلى من هو فوقه فأسف على ما فاته منه لم يكتبه الله صابراً شاكراً، وبهذا الإسناد عن عبدالله بن عمرو موقوفاً عليه: أربع خصال من كن فيه بنى الله له بيتاً في الجنة «من كان عصمة أمره لا إلّه إلا الله، وإذا أصابته مصيبة قال إنا لله وإنا إليه راجعون، وإذا أعطي شيئاً قال الحمد لله، وإذا أذنب قال أستغفر الله».

وقال ابن المبارك عن شبل عن أبي نجيح عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿إنَّه كانَ عبداً شكوراً﴾ [الإسراء: ٣] قال: لم يأكل شيئاً إلا حمد الله عليه، ولم يشرب شراباً قط إلا حمد الله عليه، ولم يبطش بشيء قط إلا حمد الله عليه، فأثنى الله عليه أنه كان عبداً شكوراً. وقال محمد بن كعب: كان نوح إذا أكل قال الحمد لله، وإذا شرب قال الحمد لله، وإذا لبس قال الحمد لله، وإذا ركب قال الحمد لله فسماه الله عبداً شكوراً. وقال ابن أبي الدنيا بلغني عن بعض الحكماء قال: «لو لم يعذب الله على معصيته لكان ينبغي أن لا يُعصى لشكر نعمته.

فصل: ولله تبارك وتعالى على عبده نوعان من الحقوق لا ينفك عنهما: أحدهما أمره ونهيه اللذين هما محض حقه عليه، والثاني شكر نعمه التي أنعم بها عليه فهو سبحانه يطالبه بشكر نعمه وبالقيام بأمره، فمشهد الواجب عليه لا يزال يشهده تقصيره وتفريطه أنه محتاج إلى عفو الله ومغفرته، فإن لم يداركه بذلك هلك، وكلما كان أفقه في دين الله كان شهوده للواجب عليه أتم وشهوده لتقصيره أعظم، وليس الدين بمجرد ترك المحرمات الظاهرة بل بالقيام مع ذلك بالأوامر المحبوبة لله، وأكثر الديانين لا يعبؤون منها إلا بما شاركهم فيه عموم الناس.

وأما الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنصيحة لله ورسوله وعباده، ونصرة الله ورسوله. ودينه وكتابه، فهذه الواجبات لا تخطر ببالهم فضلاً عن أن يريدوا فعلها، وفضلاً عن أن يفعلوها، وأقل الناس ديناً

وأمقتهم إلى الله من ترك هذه الواجبات وإن زهد في الدنيا جميعها، وقلَّ أن ترى منهم من يحمر وجهه ويمعره لله ويغضب لحرماته، ويبذل عرضه في نصرة دينه، وأصحاب الكبائر أحسن حالاً عند الله من هؤلاء. وقد ذكر أبو عمر وغيره أن الله تعالى أمر ملكاً من الملائكة أن يخسف بقرية، فقال يا رب إن فيهم فلاناً العابد الزاهد، قال: به فابدأ وأسمعني صوته، إنه لم يتمعر وجهُه فيَّ في يوم قط.

فصل: وأما شهود النعمة فإنه لا يدع له رؤية حسنة من حسناته أصلاً، ولو عمل أعمال الثقلين، فإن نعم الله سبحانه أكثر من أعماله، وأدنى نعمة من نعمه تستنفد عمله، فينبغي للعبد ألا يزال ينظر في حق الله عليه.

قال الإمام أحمد حدثنا حجاج حدثنا جرير بن حازم عن وهب قال: بلغني أن نبي الله موسى عليه السلام مر برجل يدعو ويتضرع، فقال: يا رب ارحمه فإني قد رحمته، فأوحى الله إليه: لو دعاني حتى تنقطع قواه ما استجبت له حتى ينظر في حقي عليه.

فمشاهدة العبد النعمة والواجب لا تدع له حسنة يراها؛ ولا يزال مزرياً على نفسه ذامّاً لها؛ وما أقرّ به من الرحمة إذا أعطى هذين المشهدين حقهما. والله المستعان.

الباب الحادي والعشرون

في الحكم بين الفريقين، والفصل بين الطائفتين

فنقول: كل أمرين طلبت الموازنة بينهما ومعرفة الراجح منهما على المرجوح فإن ذلك لا يمكن إلا بعد معرفة كل منهما، وقد ذكرنا حقيقة الصبر وأقسامه وأنواعه، ونذكر حقيقة الشكر وماهيته.

وقال في الصحاح: الشكر الثناء على المحسن بما أولاكه من المعروف،

يقال شكرته وشكرت له، واللام أفصح. وقوله تعالى: ﴿لا نُريدُ منكم جزاءً ولا شكوراً﴾ [الإنسان: ٩] يحتمل أن يكون مصدراً كالعقود وأن يكون جمعاً كالبرود والكفور، والشكران خلاف الكفران، وتشكرت له مثل شكرت له، والشكور من الدواب ما يكفيه العلف القليل، واشتكرت السماء اشتد وقع مطرها، واشتكر الضرع امتلأ لبناً، تقول منه شكرت الناقة بالكسر تشكر شكراً فهي شكرة، وشكرت الشجرة تشكر شكراً إذا خرج منها الشكير وهو ما ينبت حول الشجرة من أصلها.

فتأمل هذا الاشتقاق وطابق بينه وبين الشكر المأمور به، وبين الشكر الذي هو جزاء الرب الشكور، كيف نجد في الجميع معنى الزيادة والنماء، ويقال أيضاً دابة شكور إذا ظهرت من السمن فوق ما تُعطى من العلف.

وشكر العبد يدور على ثلاثة أركان لا يكون شكوراً إلا بمجموعها، أحدها: اعترافه بنعمة الله عليه، والثاني: الثناء عليه بها، والثالث: الاستعانة بها على مرضاته.

وأما قول الناس في الشكر، فقالت طائفة: هو الاعتراف بنعمة المنعِم على وجه الخضوع، وقيل الشكر هو الثناء على المحسن بذكر إحسانه إليه، فشكر العبد ثناؤه عليه بذكر إحسانه إليه. وقيل شكر النعمة مشاهدة المنة وحفظ الحرمة والقيام بالخدمة، وقيل شكر النعمة أن ترى نفسك فيها طفيلياً، وقيل الشكر معرفة العجز عن الشكر، ويقال الشكر على الشكر أتم من الشكر، وذلك أن ترى شكرك بتوفيقه، وذلك التوفيق من أجل النعم عليك، تشكر على الشكر ثم تشكره على الشكر، ألاَّ ترى نفسك للنعمة أهلاً، وقيل الشكر استفراغ الطاقة في الطاعة، وقيل الشاكر الذي يشكر على الموجود، والشكور الذي يشكر على المفقود، وقيل الشاكر الذي يشكر على الرفد[1]، والشكور الذي يشكر على الرد، وقيل الشاكر الذي

---

(١) الرفد: الإعانة.

يشكر على النفع، والشكور الذي يشكر على المنع، وقيل الشاكر الذي يشكر على العطاء، والشكور الذي يشكر على البلاء.

وقال الجنيد: كنت بين يدي السري ألعب وأنا ابن سبع سنين، وبينا جماعة يتكلمون في الشكر، فقال لي: يا غلام ما الشكر؟ فقلت: ألاَّ تعصي الله بنعمه، فقال: يوشك أن يكون حظك من الله لسانك، فلا أزال أبكي على هذه الكلمة التي قالها السري. وقال الشبلي: الشكر رؤية المنعِم لا رؤية النعم. وهذا ليس بجيد بل من تمام الشكر أن تشهد النعمة من المنعم. وقيل: الشكر قيد الموجود وصيد المفقود. وقال أبو عثمان: شكر العامة على المطعم والملبس، وشكر الخواص على ما يرد على قلوبهم من المعاني.

وحبس السلطان رجلاً فأرسل إليه صاحبه: اشكر الله! فَضُرب فأرسل إليه: اشكر الله، فجيء بمحبوس مجوسي مبطون، فقيد وجعل حلقة من قيده في رجله وحلقة في الرجل المذكور، فكان المجوسي يقوم بالليل مرات فيحتاج الرجل أن يقف على رأسه حتى يفرغ. فكتب إليه صاحبه اشكر الله! فقال له: إلى متى تقول اشكر الله وأي بلاء فوق هذا؟ فقال: ولو وضع الزنار الذي في وسطه في وسطك كما وضع القيد الذي في رجله في رجلك ماذا كنت تصنع؟ فاشكر الله. ودخل رجل على سهل بن عبدالله فقال: اللص دخل داري وأخذ متاعي، فقال: اشكر الله فلو دخل اللص قلبك ـ وهو الشيطان ـ وأفسد عليك التوحيد ماذا كنت تصنع؟.

وقيل: الشكر التلذذ بثنائه على ما لم يستوجبه من عطائه، وقيل: إذا قصرت يدك عن المكافأة فليطل لسانك بالشكر، وقيل: أربعة لا ثمرة لهم: مشاورة الأصم، ووضع النعمة عند من لا يشكرها، والبذر في السباخ، والسراج في الشمس.

والشكر يتعلق بالقلب واللسان والجوارح، فالقلب للمعرفة والمحبة،

واللسان للثناء والحمد، والجوارح لاستعمالها في طاعة المشكور وكفها عن معاصيه، وقال الشاعر:

أفـادتْكم النعـماءُ مني ثـلاثـةً يدي ولساني والضميرَ المُحَجَّبَا

والشكر أخص بالأفعال، والحمد أخص بالأقوال. وسبب الحمد أعم من سبب الشكر، ومتعلق الشكر وما به الشكر أعم مما به الحمد، فما يحمد الرب تعالى عليه أعم مما يشكر عليه، فإنه يحمد على أسمائه وصفاته وأفعاله ونعمه، ويشكر على نعمه، وما يحمد به أخص مما يشكر به، فإنه يشكر بالقلب واللسان والجوارح ويحمد بالقلب واللسان.

فصل: إذا عرف هذا فكل من الصبر والشكر داخل في حقيقة الآخر لا يمكن وجوده إلا به، وإنما يعبر عن أحدهما باسمه الخاص به باعتبار الأغلب عليه والأظهر منه، وإلا فحقيقة الشكر إنما يلتئم من الصبر والإرادة والفعل، فإن الشكر هو العمل بطاعة الله وترك معصيته والصبر أصل ذلك، فالصبر على الطاعة وعن المعصية هو عين الشكر، وإذا كان الصبر مأموراً به فأداؤه هو الشكر.

فإن قيل: فهذا يفهم منه اتحاد الصبر والشكر، وإنهما اسمان لمسمى واحد وهذا محال عقلاً ولغةً وعرفاً، وقد فرَّق الله سبحانه بينهما.

قيل: بل هما معنيان متغايران، وإنما بيَّنا تلازمهما وافتقار كل واحد منهما في وجود ماهيته إلى الآخر، ومتى تجرد الشكر عن الصبر بطل كونه شكراً، وإذا تجرد الشكر عن الصبر بطل كونه صبراً، أما الأول فظاهر، وأما الثاني إذا تجرد عن الشكر كان كفوراً، ومنافاة الكفور للصبر أعظم من منافاة السخوط.

فإن قيل: بل ها هنا قسم آخر وهو أن لا يكون كفوراً ولا شكوراً، بل صابراً على مضض وكراهة شديدة فلم يأتِ بحقيقة الشكر ولم يخرج عن ماهية الصبر.